

موسوعة سفير
التاريخ الإسلامي

المشرق الإسلامي بعد العباسيين

(٦٥٦-١٢٤٢م)



A:J
297.09
M462m
v.4
c.1

إهداء عن روح المرحوم الحاج
أبراهيم سعيد كريدته

موسوعة سفير
للتاريخ الإسلامي

297.05
17462 m
n. 4

المشرق الإسلامي بهدايا الحباسيين

[٦٥٦ - ١٣٤٣ هـ]

L A U - Riyad Nassar Library

09 JUL 2008

RECEIVED

تأليف

أ.د. محمد السعيد جمال الدين

أستاذ اللغات الشرقية

بجامعة عين شمس

أ.د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

بجامعة القاهرة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لشركة سفير

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة. ص.ب: (٤٢٥) الدقى

مقدمة الكتاب

ظهر في المشرق الإسلامى عدد من الدول المستقلة، بعضها نشأ فى وجود الخلافة العباسية وعاصرها، وبعضها ظهر بعد سقوطها على أيدي المغول، وقد أسهمت هذه الدول فى بناء الحضارة الإسلامية وازدهارها، واقتربت كل واحدة منها بأسماء أعلام كان لهم أثر بارز فى الفكر الإسلامى.

وقد تعرض هذا الجزء من الموسوعة لتاريخ المغول مع العالم الإسلامى، وما اشتمل عليه من الدروس والعبر التى يتعين علينا أن نقف عندها؛ لكى نتأمل الخصائص الإيجابية لحركة هذه الأمة عبر التاريخ، ونتعرف على ما تتمتع به من قدرة على الخلاص من البلاء الهائل الذى نزل بها، حين استولت مجموعة من القبائل المغولية الهمجية المتوحشة على مقدراتها، وقضت على مقوماتها السياسية؛ بعد أن أنزلت بها هزائم منكرة، وقضت على كل مظاهر الحضارة وشواهد العمران، ثم تحول هؤلاء الغزاة الهمج بفضل الإسلام وحضارته إلى دعاة للإنسانية ورعاة للعمران وبناء للدول.

ويتناول الكتاب الدول التى حكمت منطقة «إيران» بعد سقوط الخلافة العباسية، مثل خانات جغتاي (٦٢٤ - ٧٦٠هـ) والدولة الإيلخانية (٦٥٤ - ٧٤٤هـ)، وكذلك الدول والأسر التى حكمت تلك المنطقة من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر الهجرى، كالدولة «الجلاترية» فى «العراق»، و«المظفرين» فى «فارس» و«كرمان» و«كردستان»، و«ملوك كرت» فى «هراة»، و«أمراء قراقونلو» فى «أذربيجان»، و«شاهات إيران» من الصفويين والأفغانيين والزنديين والتاجاريين.

أما بلاد «ما وراء النهر» فقد حكمها فى نفس الفترة التيموريون والشيانيون وغيرهم، وكانت «هندوستان» و«أفغانستان» من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الهجرى تحت سيطرة الغزنويين والغوريين والمماليك، وسلاطين «دهلى» من الخلجيين، وآل تغلق وغيرهم.

ثم أسس الملك «بابر» الملقب بالمغولى الأكبر إمبراطورية المغول فى «الهند»، واستطاع أن يخضع «أفغانستان» لحكمه سنة (٩٠٩هـ = ١٥٠٣م)، وجعل «أكرا» عاصمة دولته، وقد أظهرت «الهند» خلال قرنين من الزمان من عهد «بابر» إلى «أورنك زيب» نشاطاً واسعاً فى مجال الحضارة والتقدم، يقارن بعصور النهضة فى «أوروبا» وبعهد «سليمان القانونى» فى «تركيا»، فشهدت البلاد إصلاحات إدارية وعسكرية، ونهضت الصناعات والعلوم، وارتقت الآداب والفنون، وظلت الدولة قائمة حتى سقطت فى يد الاستعمار الإنجليزي.

وقد تناولنا كل دولة من هذه الدول من حيث: النشأة، والوضع الداخلى، والعلاقات الخارجية، والأوضاع الاقتصادية والدينية والعلمية والأدبية، مع دراسة نظم الحكم والأوضاع المالية والعسكرية والقضاء والشرطة وغير ذلك.

المؤلفان

الهيئة المشرفة :

أ.د. حسن محمود الشافعى

عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ بجامعة القاهرة.

أ.د. حسن على حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة.

أ.د. عبدالشافى محمد عبداللطيف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

أ.د. عبدالله جمال الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة.

أ.د. محمد حرب

رئيس مركز بحوث العالم التركى

المحرر العام

أحمد عبدالفتاح تمام

تحرير

أشرف فوزى صالح

الإشراف على التنفيذ

عمر على الكومى عبدالحميد توفيق

المراجعة اللغوية والتصحيح

زينهم البدوى حمدى بنورة

الإخراج الفني

ماهر عبدالقادر

رسوم

محمد طراوى محمد نادى

عبد المرضى عبيد إبراهيم الطهطاوى

ماهر عبد القادر محمد نبيل

عصام طه

رقم الإيداع ٧٠٣٧ / ١٩٩٦

الترقيم الدولى : 8 - 492 - 261 - 977 : I.S.B.N

أولاً : وسط آسيا من بدايات القرن السابع الهجري حتى سقوط الخلافة

العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي

تمهيد :

كانت الدولة العباسية آنذاك تحت حكم الخليفة «الناصر لدين الله» الذي حكم فترة طويلة امتدت من سنة (٥٧٥هـ) حتى سنة (٦٢٢هـ)، وعلى الرغم من طول هذه المدة التي لم تتح لخليفة من قبله ، فإنه لم يستغلها استغلالاً حسناً في صالح دولته وما ينفع الناس ، حتى وصفه ابن الأثير بقوله :



«كان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً ، فخرّب العراق في أيامه ، وتفرّق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم» وإلى جانب ذلك لم يعمل على توحيد الصف بين الإمارات الإسلامية، فأشعل الفتنة بينها وألّب بعضها على بعض .

ولم يكن نفوذ الخليفة العباسي قوياً إلا على بغداد والمنطقة المجاورة، حيث كانت المنطقة الشمالية من العراق في أيدي أتابكة الموصل، وبقية العراق الغربي خاضعاً للسلاجقة، على حين سيطر الأيوبيون ومن بعدهم «المماليك» على مصر وأجزاء كبيرة من الشام وفلسطين .

وفي المشرق كانت السيادة هناك لدول «الأتابكة» ، و«الغور» ، والخورزمية ، والإسماعيلية ، وأصبحت سلطة الخليفة رمزاً روحياً محدوداً ، لا يتدخل في شيء إلا إذا طلب منه التدخل للتصديق على ما يطلب منه فحسب .

وتُوفى الخليفة «الناصر لدين الله» في أواخر رمضان سنة (٦٢٢هـ) بعد أن شهدت خلافته سقوط دولة السلاجقة ، وظهور قوة المغول بزعمامة چنكيزخان واكتساحهم بلاد ما وراء النهر

وخراسان وإسقاطهم للدولة الخوارزمية وزحفهم نحو الجزيرة العراق والشام وتهديدهم للعالم الإسلامي .

وتولى الخلافة بعد «الناصر لدين الله» ابنه «الظاهر بأمر الله» ، لكن خلافته لم تطل ، إذ تُوفى في (١٤ من رجب سنة ٦٢٣هـ)، وتولى بعده ابنه «المستنصر بالله» ، وفي عهده تصاعد الخطر المغولي وأصبح على مشارف العراق ، وبعد وفاته في جمادى الآخرة سنة (٦٤٠هـ) بويع لابنه «المستعصم بالله» ، وهو آخر الخلفاء العباسيين في العراق .



سمرقند - غور أمير (مدفن تيمور لنك)

المشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي :

الخوارزمييون



* أولاً : محمد خوارزمشاه وأطماعه في الدول المجاورة :

تولى السلطان محمد خوارزمشاه حكم الدولة الخوارزمية سنة (٥٩٦هـ)، وبدأ عهده بالدخول في منازعات متصلة مع الدول المجاورة له، فاشتبكت الدولة الغورية التي كانت تقع في منطقة «أفغانستان» الحالية، حين ظن الأخوان «غياث الدين» و«شهاب الدين» ضعف السلطان «محمد خوارزمشاه» بحكم صغر سنه، وجرداً جيشاً كبيراً للاستيلاء على

منطقة «خراسان»، مكّنهما من الاستيلاء على عدد من مدن «خراسان»، إلا أن «محمد خوارزمشاه» تمكن بعد ذلك من إلحاق الهزيمة بهما، ثم مات «غياث الدين» فجأة، فتمكن «السلطان محمد» من طرد «الغوريين» من «خراسان» في سنة (٦٠٠هـ).

ثم خرج شهاب الدين الغوري بقواته وكان مقيماً بالهند إلى لقاء محمد خوارزمشاه وألحق بجيشه عدة هزائم متتالية، ووصلت

جيوشه إلى «جرجانية» عاصمة «الدولة الخوارزمية»، وحاصرها، ولكن أهلها قاوموه وصمدوا في وجهه، واتصل «السلطان محمد» بالقرائطين وبعثمان خان سلطان سمرقند، طالباً العون والمساعدة، فلما وصل إليه المدد، تمكن من إلحاق الهزيمة بشهاب الدين الغوري في منطقة «هزاراسب»، وتتبع «القرائطيون» «الغوريين» وطاردوهم حتى أوشكوا على القضاء عليهم، إلا أن «عثمان خان» تدخل في اللحظة الأخيرة

ومنع القرائطيين من تحطيم الجيش الغوري، وهرب «شهاب الدين» إلى «الهند»، ثم توفى في سنة (٦٠٣هـ)، فتولى ابنه السلطان «محمود» حكم «الدولة الغورية» في «هرات» و«فيروزكوه»، وكان شاباً مستهتراً، مولعاً بالخمر، فانصرف عنه أتباعه، وقُتل في سنة (٦٠٩هـ).

كان للسلطان «محمد خوارزمشاه» أخ يدعى «تاج الدين على شاه»، وقد هرب هذا الأخ من أخيه خوفاً من بطشه؛ بسبب خصومة حدثت بينهما، ثم توجه إلى بلاط السلطان «محمود الغوري» الذي رحّب به وأحسن وفادته، وقد نجح «على شاه» في

توطيد علاقته برجال البلاط والعلماء والفقهاء في «الدولة الغورية»، فلما قتل السلطان «محمود الغوري»، نصبه هؤلاء ملكاً على «الدولة الغورية» في عام (٦٠٩هـ)، فأرسل إلى أخيه السلطان «محمد خوارزمشاه» يشره بما وصل إليه، فبعث إليه من تمكن من قتله بالحيلة، واستولى «محمد خوارزمشاه» على أملاك «الدولة الغورية» دون حرب أو قتال، ثم ضم «غزنة» إلى ممتلكاته في سنة (٦١١هـ)، وتوجه منها إلى «سمرقند» حيث نجح في ضمها إلى دولته، ثم تمكن في العام نفسه (٦١١هـ) من الاستيلاء على الجانب الغربي من «الدولة

القرائطية» فدانت له بذلك منطقة بلاد «ما وراء النهر» كلها، وعهد إلى ابنه «جلال الدين منكبرتي» بحكم بلاد «فيروزكوه» و«هرات» و«غزنة».

* ثانياً : السلطان محمد والخلافة العباسية :

عمل السلطان «محمد خوارزمشاه» على إعداد جيش قوى، لكي يهاجم به الخلافة العباسية للأسباب الآتية :

١ - رغبته في أن تكون له الكلمة العليا على الخليفة العباسي، شأن ما كان عليه سلاطين الدولتين «البويهية» و«السلجوقية». وكان الخليفة العباسي يأبى ذلك الأمر.



٢- وأنه حين استولى على أملاك «الدولة الغورية»، وجد في خزائن السلطان «شهاب الدين» مجموعة من الرسائل بعث بها إليه الخليفة «الناصر لدين الله» يحرضه فيها على مهاجمة الخوارزميين وسلطانهم، ويزين له ذلك .

٣- وأنه وصل إلى علمه أن الخليفة يؤلب عليه حكام الدول الإسلامية المجاورة مثل : «أتابكة أذربيجان»، و«أتابكة أصفهان»، بل إنه حرض «الإسماعيلية» على قتل «أغلمش» نائبه على العراق العجمي.

٤- وأنه رأى أن الخلافة العباسية لم تعد تمثل الإسلام في شيء، حيث انشغل الخلفاء بمصالحهم الشخصية عن الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية في المناطق الوثنية المجاورة، ومن ثم لا تترتب للخليفة العباسي أية حقوق على حكام المسلمين .

وقد أعلن «السلطان محمد» أن الخليفة العباسي لا حق له في خلافة المسلمين، وأن هؤلاء العباسيين - في الأصل - ما هم إلا مغتصبون لهذه الخلافة من أبناء «علي بن أبي طالب» - رضي الله عنه - وأن الشيعة هم أولى الناس بتولي هذه الخلافة. ومن ثم اختار رجلاً من أعقاب العلويين يدعى «علاء الملك الترمذى»، ونصبه خليفة على المسلمين في «خوارزم» بعد أن استصدر فتوى من فقهاء بلاده وعلمائها تنص على أن الخليفة العباسي لا يحق له أن يحكم المسلمين.



أعد «السلطان محمد» جيشه في عام (٦١٤هـ)، وتحرك به قاصداً «بغداد»، فلما وصل منطقة العراق العجمي خرجت إليه جيوش «الأتابك سعد بن زنكي» الذي حرضه الخليفة العباسي على اقتطاع هذه المنطقة والاستيلاء عليها من «الخوارزميين»، وتمكن «السلطان محمد» من هزيمة هذه الجيوش، والاتفاق مع «سعد بن زنكي» على حكم «بلاد فارس» مقابل دفع جزية سنوية إلى «الدولة الخوارزمية»، وواصل «محمد خوارزمشاه» طريقه إلى «بغداد»، فاعترضه جيش - بعث به الخليفة - بقيادة «أتابك أذربيجان»، فانتصر عليه «السلطان محمد» وأسر قائده، ثم أطلق سراحه في مقابل تعهده بدفع جزية سنوية، ثم مضى في طريقه واقترب من «بغداد» في خريف السنة نفسها، وتأهب السلطان «محمد» لغزو «بغداد»، ولكن أمطاراً غزيرة انهمرت وعواصف ثلجية شديدة هبت على منطقة «أسد آباد» التي كان يعسكر فيها بجنوده، فأهلك معظم الدواب، وقتلت عدداً كبيراً من الجنود، واضطر السلطان الخوارزمي إلى العودة إلى «خوارزم» دون أن يفعل شيئاً في مواجهة الخليفة العباسي، وبدأ نجمه في الأفول بعد ذلك، حيث واجهه الخطر المغولي واعترضته نكبات كثيرة.



*** ثالثًا : نظرة عامة على
الحالة السياسية والاجتماعية
في الدولة الخوارزمية:**

اجتمعت أسباب الرفاهية ورغد العيش في الدول الإسلامية، وبالع الناس في جمع المال والثروات، وانتشرت الأمراض الاجتماعية والمؤامرات السياسية في هذه الفترة، لذا فإن من كان ينظر إلى «الدولة الخوارزمية» يتصور أنها دولة قوية متماسكة، وأنها أقوى الدول على الإطلاق في تلك المنطقة، غير أن الواقع كان على خلاف ذلك، فقد استنزفت الحروب الطويلة التي دخلها

«الخوارزميون» مع الدول المجاورة الواحدة تلو الأخرى كل ثرواتهم، واستهلكت عناصر الفروسية في جيوشهم، وقضت على خيرة الجنود والمقاتلين.

كان الجيش الخوارزمي يشتمل على أخلاط وأجناس مختلفة من قبائل «الأتراك القنفلي» و«الغور» و«البلوج»، وغيرها من العناصر التي كانت -غالبًا- تتنافر، وتدب

بينها الخلافات - أحيانًا - لاتفه الأسباب، ومن ثم كان الجيش الخوارزمي غير متجانس، ومتفرق الأهواء والمقاصد.

أما من الناحية الداخلية، فقد كانت علاقة «السلطان محمد» بالعلماء والفقهاء علاقة سيئة للغاية، وأدى ذلك إلى سوء علاقته بالشعب، وكانت الفتوى التي انتزعها «السلطان محمد» من العلماء والفقهاء - بعدم أحقية الخلفاء العباسيين بالخلافة، وأن العلويين أحق بها منهم - من بين أسباب تفاقم الخلاف بين الجانبين، حيث جاءت هذه الفتوى رغم أنوف العلماء، وبتهديد السلاح.



لم تكن البلاد التي استولى عليها الخوارزميون راضية عن دخولها تحت حكم «محمد خوارزمشاه»، ولم تمل بأي حال إلى الخوارزميين، ولهذا جاءت مواقفها متراجية حين طلب منها «السلطان محمد» المدد بعد عبور المغول نهر سيحون، وتباطأت في تقديم المدد والعون للخوارزميين، مما اضطر السلطان الخوارزمي إلى الانسحاب.

ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين العرب يقرون بتدين السلطان «محمد خوارزمشاه» وحسن عقيدته

وشجاعته، على الرغم من أخطائه السياسية والأخلاقية الفاحشة التي أودت بدولته، وعرضت العالم الإسلامي كله للخراب والدمار، وقد تمثلت هذه الأخطاء فيما يلي:

١ - محاربة «محمد خوارزمشاه» للغوريين في الشرق والجنوب حتى اضطروهم إلى الانحسار في جزء محدود، واختتم علاقاته بهم بقتل أخيه.

٢ - وتحطيم الدولة القراخانية التي كانت تمثل سدا منيعاً يمنع غارات القبائل المغولية البربرية على دولته.

٣ - وسوء علاقته بالخليفة العباسي.

٤ - واستنزاف خيرة القادة والفرسان والجنود في حروبه التي خاضها في «إيران» و«تركستان».

وقد تناول الأستاذ «أبو الحسن الندوى» في كتابه «تاريخ دعوة وعزيمة» أبرز عيوب «الدولة الخوارزمية» وسلطانها «محمد خوارزمشاه» بقوله:

«لقد صدر عن الملوك الخوارزميين الخطأ الكبير نفسه الذي وقع فيه الحكام العرب في الأندلس... ولم يعف عنهم قانون الجزاء الإلهي... ذلك لأنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه، وقمع الخصوم، ولم يبذلوا أي اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشري الذي كان يعيش بجوار حدودهم، وكان بنفسه عالمًا مستقلاً، فيصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي، كان مقتضى الحزم السياسي وبعد النظر أن يُعُنوا بإيجاد التوافق العقائدي في هذه الدنيا الواسعة، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجاً يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجههم وحدهم، بل اكتسح المسلمين كلهم».

الأوضاع السياسية في وسط آسيا قبل ظهور چنكيزخان

انقسمت منطقة «أواسط آسيا» في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) إلى دول وحكومات متعددة ومختلفة، على النحو الآتي:



الصين:

أولاً: وانقسمت إلى قسمين، أحدهما شمالي (الصين الشمالية) وعاصمته «بكين»، وكان تحت حكم أسرة «كين» التي سيطرت عليه، والقسم الآخر جنوبي، وكان يضم الأقاليم الجنوبية، التي سيطرت عليها أسرة «سونج»، وقد اتخذت من مدينة «هانج تشيو»^(١) عاصمة لها.

ثانياً: الدولة الأويغورية:

وهي دولة مستقلة كونها جماعة من الأتراك الأويغور في «التركستان» شمالي غرب أواسط

آسيا، وكانت هذه الدولة ذات حضارة متميزة؛ أسهمت بنصيب وافر في جذب القبائل البدوية في المناطق المجاورة إلى الأخذ بمظاهرها.

ثالثاً: الدولة القراخانية:

وتقع في الجنوب الغربي بين «مملكة الخوارزميين» من جهة الغرب، ومساكن المغول في الشرق، وكانت تمثل - بموقعها هذا - حائط الصد الفاصل لهجمات القبائل المغولية على «الدولة الخوارزمية»، التي فصلها «نهر

سيحون» عن ممتلكات «القراخانيين».

رابعاً: الدولة الخوارزمية:

وحكمت فيما وراء «نهر سيحون»، وكانت الدولة الإسلامية الوحيدة بين دول هذه المنطقة، وقد بسطت هذه الدولة حكمها على «إيران» كلها تقريباً، وشاركها في حكم البلاد الفارسية دولة قوية أنشأها «الإسماعيلية» في المنطقة الواقعة جنوب بحر «قزوين» في عام (٤٨٣هـ)، ثم بسطت حكمها على أجزاء أخرى من «إيران».

وإلى جانب ذلك كان هناك مجموعة من قبائل البدو الرحّل في أقصى الشمال على حدود «سبيريا المغولية»، وفي إقليم «السهب» شمالي صحراء «جوبي» وكانوا أشبه بخلية النحل من حيث كثرة تحركاتهم وتنقلاتهم من مكان إلى مكان، وتمتعهم بصفات بدنية تتناسب مع البيئة التي عاشوا فيها، حيث كانت تحتاجها الرياح الثلجية في الشتاء، والمثلثة الحرارة خلال الصيف القصير. وكانت هذه القبائل تنقسم إلى مجموعات لا حصر لها؛ تتفاوت فيما بينها من حيث عدد أفرادها، ومناطق نفوذها، وأشهر هذه القبائل:

١ - قبائل التتار: وهي من أشد قبائل الجنس الأصفر وحشية

وجبروتاً، وتعيش في صراع دائم فيما بينها، كما كانت خاضعة في أغلب الأوقات لحكام «الصين الشمالية» من أفراد أسرة «كين»، وقد عاشت هذه القبائل حياة متدنية للغاية، ولبس أفرادها جلود الكلاب والفئران وغيرها من القوارض، كما أكلوا من لحومها. وكانوا من ألد أعداء المغول، ويناصرون الشائرين عليهم، فلما أصبح «چنكيزخان» قائداً للمغول تمكن من القضاء على قبائل التتار، ولم ينج منهم إلا عدد قليل، وعلى إثر ذلك أطلق اسم «التتار» على «چنكيزخان» وأتباعه من المغول تيمناً بما فعلوا، ولم يمض وقت طويل حتى أطلق عليهم اسم «المغول» أيضاً، فعرفوا بالاسمين معاً.



أحد فرسان المغول مع فرسه



سور الصين العظيم

٢ - قبائل كرايت: وكانت تسكن الواحات الشرقية الداخلية لصحراء «جوبي»، وامتدت مساكنهم حتى «سور الصين العظيم»، وظلت أقوى القبائل في المنطقة المغولية في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وبسطت نفوذها وسيطرتها على معظم القبائل المجاورة لها والمحيط بها. واعتنق ملك «الكرايت» المسيحية في سنة (٣٩٨هـ)، فتبعه رعاياه، وعرفت هذه القبائل في «أوريا» منذ ذلك الحين.

٣ - قبيلة نايمان: إحدى القبائل التركية التي غلب عليها الطابع المغولي، وقد اعتنقت هذه القبيلة المسيحية، شأنها شأن قبائل «كرايت»، ومع ذلك فإن أفرادها ناصبوا قبائل «كرايت» العداء، وكثيراً ما نشبت الحروب بينهم.



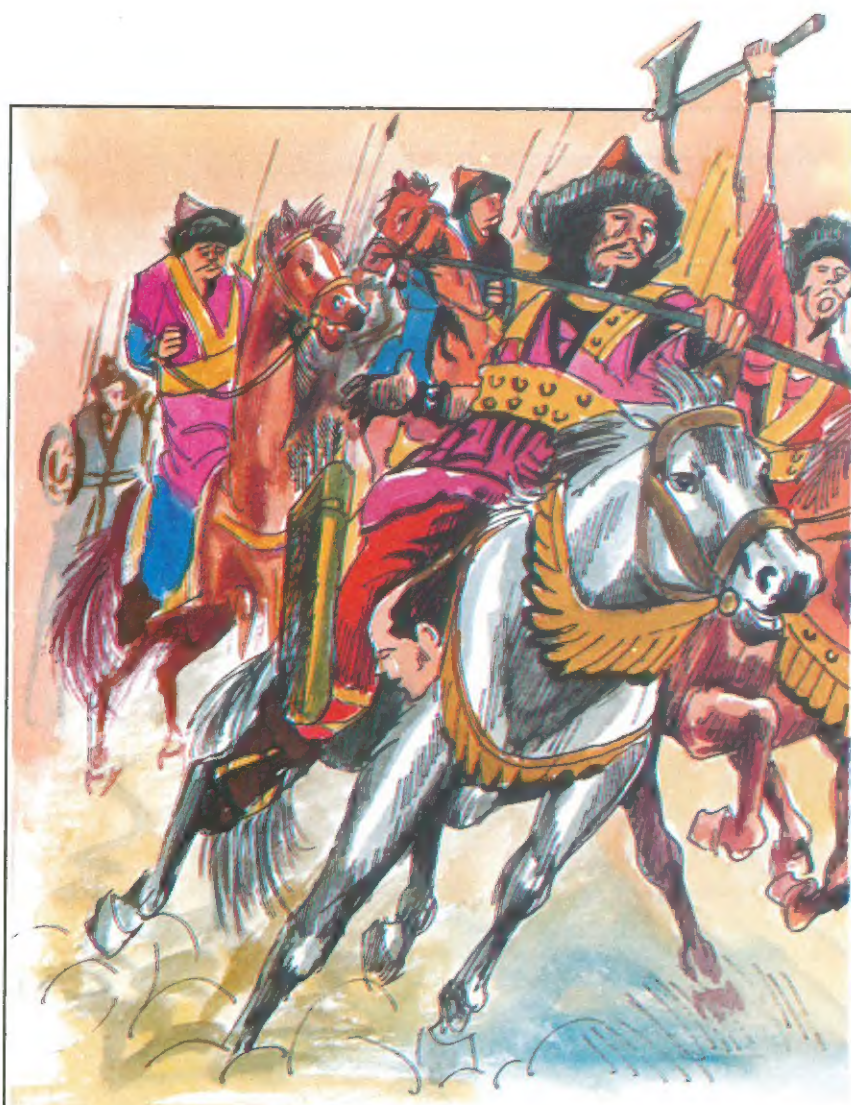
وقد أقاموا خيامهم على عربات ذات عجل؛ كي يسهل نقلها معهم في ترحالهم. والواقع أن بيئة هذه المناطق فرضت على المغول أن يعيشوا في نزاع وصراع من أجل البقاء، فضلا عن أنهم كانوا لا يؤمنون بدين ولا شريعة، ولا يعرفون حلالا أو حراما، ولا منطق بينهم إلا للقوة، ولا حكم إلا للسيف، ولذلك كانوا يشكلون ضغطا متواصلا على الدول المتحضرة التي تعيش إلى جوارهم، ويتجهزون الفرصة للإغارة عليها. فكان لابد لهذه الحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية - التي كانت تعيشها هذه القبائل المغولية - أن تتمخض - في النهاية - عن وجود شخصية قوية توحد شتاتها، وتكون منها دولة فتية موحدة، فظهر شاب مغولي اسمه «تموجين» هو نفسه «چنكيزخان»، ونجح بعد كفاح طويل في تأسيس وبناء إمبراطورية المغول الفسيحة، فامتدت حدودها بين «الصين» شرقا، و«بحر الإدریاتيك» غربا.

٤ - المغول : نشأ «المغول» الأصليون في المنطقة المعروفة باسم «هضبة منغوليا» شمالي صحراء «جوبي»، وتنقسم منغوليا إلى قسمين: قسم شمالي غربي، به جبال كثيرة؛ تتخللها وديان تغطيها الحصباء. وقسم جنوبي شرقي، منخفض؛ يشمل بقية صحراء «جوبي»، وهو سهل متسع، تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، وكانت القبائل المغولية في هذه المنطقة تعيش مستقلة عن بعضها، وتقاتل فيما بينها، أو مع جيرانها، ولاسيما التتار. وقد ظهرت طائفة «قيات» التي نشأ فيها «چنكيزخان» من بين هذه القبائل.

امتاز مناخ هذه المنطقة بشتاء طويل تشتد فيه البرودة، وتهطل فيه الأمطار، وتنخفض درجة الحرارة في بعض جهاتها إلى (٥٨) درجة تحت الصفر، فتجمد المياه، فإذا ما حل الصيف القصير - بضعة أسابيع - تشتد الحرارة وترتفع درجاتها - أحيانا - إلى (٦٠) درجة مئوية.

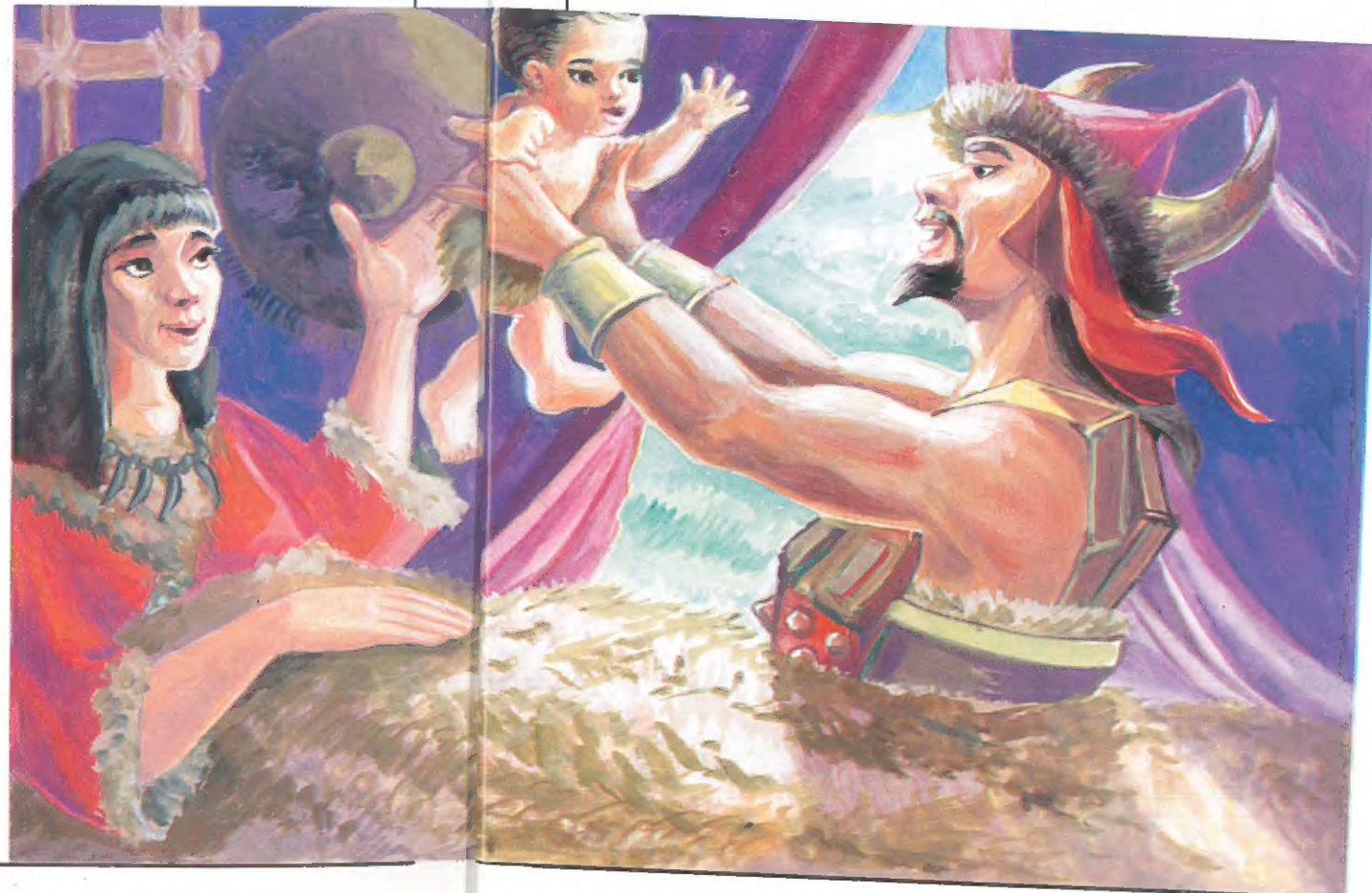
وقد انقسمت القبائل المغولية من حيث المعيشة والعمل إلى نوعين: الأول: عمل بالرعى، ويعيش إلى جوار المراعى.





عاش «تموجين» حياة عز ودلال في مطلع حياته، إلا أنه لم ينعم بها طويلاً، حيث مات أبوه وهو في الثالثة عشرة من عمره، فتغير الحال، وانفض عنه أكثر الناس، واضطر إلى الاعتماد على نفسه في رعاية أسرته، فكانت هذه الفترة شخصيته، وطبعته بطابع الجدة والصرامة، لدرجة أنه كان يستطيع أن يبقى ثلاثة أيام دون طعام أو شراب، فلما بلغ السابعة عشرة من عمره التف حوله جماعة من الناس، وتمكن من خلالهم أن يكون قوة يخشى بأسها في المنطقة، فبدأ يفرض نفوذه على القبائل المجاورة، واحدة تلو الأخرى . كانت شخصية «تموجين» القوية

من بين الأسباب التي دفعت الناس إلى الالتفاف حوله، فبدأ يفرض نفوذه، ثم السيطرة على القبائل الكبيرة، وتمكن في سنة (٥٩٩هـ) من إحراز نصر كبير على قبيلة «كرايت»، وأسعرت القبائل الأخرى إلى الدخول في طاعته، وقضى على ملك «النائمان»، ودخلت قبائله تحت إمرته في سنة (٦٠٠هـ)؛ التي اجتمعت فيها القبائل وأجمعت على اختيار «تموجين» إمبراطوراً لها تحت اسم «چنكيزخان» . وتعدُّ هذه السنة بداية للدولة المغولية، التي وضع لها «چنكيزخان» مجموعة من القوانين الصارمة عرفت باسم «دستور الياسا» في عام (٦٠٣هـ)، وكان على كل من يخضع لهذه القوانين أن يدين لها بالولاء، أما من يخرج عليها فليس له من جزاء إلا القتل فوراً. وهكذا استطاع «چنكيزخان» أن يوحد شتات هذه القبائل في دولة واحدة تخضع لدستور واحد، واستغل قُوى هذه الأقوام والقبائل في تكوين جيش قوى استطاع به - بعد ذلك - أن يطيح بالدول المجاورة له ، الواحدة تلو الأخرى .



* أولاً : چنكيزخان وتوحيد القبائل :

وُلد «چنكيزخان» في سنة (٥٤٩هـ = ١١٥٤م)، بإحدى المناطق المغولية، وكان أبوه «يسوكاي بهادر» رئيساً لقبيلة «قيات» المغولية، وكان يحارب - أحياناً - القبائل المجاورة له ، كما كان يصطدم ببعض قبائل التتار، وقد خرج مرة لمحاربة رئيس إحدى القبائل التتارية، وانتصر عليه، وتمكن من أسره وقتله، فلما عاد إلى موطنه وجد امرأته قد ولدت مولوداً، فأسماه «تموجين» بنفس اسم رئيس قبيلة التتار الذي تمكن من أسره وقتله، تيمناً بانتصاره عليه .

نشأة الإمبراطورية المغولية



* ثانيًا: سيطرة «چنكيزخان» على الدول المجاورة :

١- الدولة الأويغورية وانضمامها إلى إمبراطورية چنكيز:

دخل «الأويغور» في طاعة ملك «الخطا»، الذي أرسل إليهم قوات من عنده لكنها أساءت معاملة الأهالي الأويغوريين، فهاجمتها الأهالي وقضت عليها، فأرسل إليهم «ملك الخطا» قوة كبيرة تمكنت من إخضاع «الأويغور» لسلطونها،

ونكلت بهم أشد أنواع التنكيل، فبعث «الأويغور» إلى «چنكيزخان» يطلبون منه المساعدة، في الوقت الذي ثاروا فيه على جنود «الخطا»، وتمكنوا منهم وقتلوا رئيسهم، ثم دخلوا بعد ذلك تحت حماية «چنكيزخان» في سنة (٦٠٦هـ)، ونتيجة لذلك فقد شاع «الخطا» الأويغوري بين أتباع «چنكيزخان»، وأصبحوا يدونون به سجلاتهم وكتاباتهم .

٢ - سيطرة چنكيز على أقاليم الصين الشمالية :

لاحظ «چنكيزخان» أن ملوك «الصين» الشمالية يحاولون الوقعة بين القبائل المغولية الخاضعة لسيطرته، ويعملون على تأليب أفراد هذه القبائل عليه وعلى قبيلته، فخرج إليهم على رأس جيش كبير، وأخذ معه كل أبنائه في قيادة هذا الجيش، ودخل في



حروب متواصلة، بدأت في عام (٦٠٨هـ)، وانتهت في عام (٦١٢هـ)، حين سيطر «چنكيز» على العاصمة «بكين»، واستولى على كنوز «الصين» ونفائسها، فارتقت حياة المغول، وصاروا يصنعون خيامهم من الحرير، ويرصعون سيوفهم بالجواهر.

وقد انتفع المغول من خبرات «الصين» العسكرية؛ إذ تمكن الصينيون من اختراع بارود، وتطوير آلات الحرب

القديمة وعدتها، مثل «المجانيق» و«العرّافات» وغيرها، مما مكّنهم من فتح أحصن القلاع وأمنعها، وأصعب المناطق العسكرية، كما استفادوا من استيلائهم على «بكين» الأثر النفسى الذى تكون لدى الناس من المفاجأة التى سيطرت عليهم حين سمعوا بأن مجموعة من القبائل البربرية الهمجية قد أطاحت بدولة كبرى مثل «الصين الشمالية»،

ولم يستطع بعض الملوك تصديق هذا الحدث، مثلما فعل «محمد خوارزمشاه» الذى لم يصدق هذا الأمر حتى سنة (٦١٥هـ)، وبعث ببعض خاصته تحت رئاسة أحد العلماء فى بعثة استكشافية للتحقق من صحة هذا الخبر. فلما تيقن من ذلك أبدى دهشته، وقرر فى نفسه أن هذه القوة الوليدة لا بد أنها تمتلك قوة خارقة، وعليه أن يحتاط لذلك، وسيطر عليه هاجس

الإمبراطورية المغولية الوليدة. وهكذا نُصر المغول بالرعب، وخافهم الملوك، ورؤساء الدول المحيطة بهم .

ثم عاد «چنكيزخان» من «الصين» إلى بلاده فى سنة (٦١٨هـ)، لكى يطارد رؤساء القبائل الفارّين منه، والذين تسببوا فى إحداث بعض الاضطرابات والمشاكل فى بلاده.



٣ - قضاء چنكيزخان على الدولة القراخطائية:

فر عدد من رؤساء القبائل وأبنائهم من وجه «چنكيزخان» إبان المذابح التي قام بها أثناء محاولته توحيد شتات القبائل التركية المغولية، وكان من بينهم «كوچلك خان» ابن ملك قبائل «النایمان» الذي هام على وجهه متوجهاً نحو الغرب وبصحبه مجموعة من جنوده، حتى عبر حدود «الدولة القراخطائية»، فتم القبض عليه وعلى من معه، وأمر «كورخان» ملك هذه الدولة بإيداعهم السجن.

وأثناء ذلك نشب فيه نزاع بين القراخطائيين والخوازميين، حيث امتنع السلطان «علاء الدين محمد خوارزمشاه» عن دفع الجزية السنوية التي كانت تدفع للدولة القراخطائية، وكان مقدارها ثلاثين ألف دينار، وكان السلاطين الخوارزميون يوصون أبناءهم بدفع هذه الجزية لهم؛ لأنهم يمثلون السد الذي يمنع عن بلادهم غارات القبائل الهمجية من جهة الشرق، فلما امتنع «محمد خوارزمشاه» عن دفع هذه الجزية، كان لابد من قيام الحرب بين الطرفين.

استطاع «كوچلك خان» - من سجنه - أن يخدع «كورخان» ملك «الخطا» ويقنعه بأنه خير معين له في حربه ضد «خوارزمشاه»، وأنه

يستطيع بسهولة أن يجمع جيشاً كبيراً من الجنود الذين فروا أمام «چنكيزخان»، وأن بوسعه أن يلحق الهزيمة بخوارزمشاه. وكان «كورخان» في حاجة إلى من يساعده، فوافق على عرض «كوچلك»، وأطلق سراحه، وأمنه، وسمح له بالخروج لجمع الجنود وتكوين الجيش، فما كان من «كوچلك» إلا أن اتصل بمحمد

خوارزمشاه واتفق معه على أن يجمع جيوشه ويهاجم القراخطائيين جهة الشرق، في الوقت الذي يهاجمهم فيه الخوارزميون من الجهة الغربية، مقابل اقتسامها، فوافقه «محمد»، وتم تنفيذ هذا المخطط، وتمكن «كوچلك» من قتل «كورخان»، ثم تزوج ابنته بعد أن ارتد عن دينه إلى البوذية من أجل هذا الزواج^(٢).

اضطهد «كوچلك» المسلمين في المناطق التي سيطر عليها، وأخذ يُضَيِّق عليهم، ويستولي على أرزاقهم، وينزعهم من أداء شعائهم، ويهدم مساجدهم، وينزعهم من رفع الأذان، ويحاول إرغامهم على ترك الدين الإسلامي واعتناق البوذية، فضج المسلمون من ذلك وطلبوا العون من «چنكيزخان»، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة أحد قادته الكبار للتخلص من «كوچلك»، وتمكن هذا الجيش ببراعة عسكرية فائقة من القضاء على جيش «كوچلك» في وقت قصير جداً، وفر «كوچلك» من أمام القائد المغولي، ولكن المغول تتبعوا خطواته حتى أدركوه، وقضوا عليه في سنة (٦١٥هـ).

دهش «محمد خوارزمشاه» من الطريقة التي تمكن بها القائد المغولي

من السيطرة على «الدولة القراخطائية»، في حين أنه كان يخشى بأس «كوچلك» ويهابه، لدرجة أنه أمر سكان القرى الحدودية بينه وبين دولة «كوچلك» بهجرها حين دب خلاف بينهما، خشية أن يهاجمه «كوچلك»، فشعر بالقلق وسيطر عليه الخوف، خاصة أن بلاده أصبحت مجاورة لأملاك «چنكيزخان» بعد أن ساعد هو نفسه في زوال «الدولة القراخطائية» التي كانت بمثابة حائط الصد المنيع لبلاده ضد غارات المغول البربر.

الخوارزميون والمغول

حدث صدام بين السلطان «محمد خوارزمشاه» وفيلق من المغول في سنة (٦١٢هـ) بعد أن تغلب المغول بقيادة «چنكيزخان» على جميع البلاد المتحضرة المجاورة لهم فلم يقصدوا بلداً إلا فتحوه، حتى بلاد «الصين» التي ظلت في نظر القبائل المغولية - أرضاً لا يمكن أن تستباح حرمتها بأية قوة، تمكن «چنكيزخان» من دخولها، وفتح «بكين» عاصمة «الصين الشمالية» في سنة (٦١٢هـ)، التي وقع فيها الصدام بين الخوارزميين والمغول حين قاد أحد زعماء القبائل الفارين من وجه «چنكيزخان» مجموعة من أبناء قبيلته وانطلق شمالاً، واستقر



فى منطقة قريبة من نفوذ الخوارزميين، فأرسل «چنكيزخان» ابنه «چوچى» (توشى) على رأس فرقة صغيرة من جنوده لتعقب هؤلاء الفارين، ففضى «چوچى» عليهم، ثم عاد أدراجه قاصداً «منغوليا»، فالتقى فى طريق العودة بجيش كان يقوده السلطان «محمد خوارزمشاه» بنفسه، فبعث

«چوچى» إليه برسالة مؤداها أن المغول ما قدموا إلا من أجل دفع الثوار الخارجين، ولم يأتوا لمحاربة المسلمين، وليست عندهم أوامر بذلك، فلما قرأ «السلطان محمد» الرسالة ركب الغرور، وأعلن الحرب عليهم، وهاجمهم، واستمرت الحرب سجالات بين الطرفين طيلة النهار حتى أتى الليل، فأشعل

فلما هاجم المغول بلاده - بعد ذلك - أخيراً تنهقر ألامهم بغير انتظام، وفقد القدرة على مواجهتهم ومنازلتهم. وقد استولت عليه الدهشة عندما سمع نبأ فتح المغول للعاصمة الصينية «بكين»، ولم يصدق ذلك حيث كانت «الصين» تتمتع بنظام إدارى وعسكرى فريد،

وبعث «بهاء الدين الرازى» أحد أركان دولته لاستطلاع هذا الخبر، فلما تأكد «الرازى» من صحة الخبر، عاد إلى السلطان «محمد خوارزمشاه» ووصف له ما رأى خلال رحلته بقوله: «عندما وصلنا إلى حدود طمغاج واقترنا من عاصمة التون خاتون (أى عاصمة أباطرة الصين الشمالية وهى بكين) تراءى لنا من مسافة بعيدة أكمة بيضاء عالية... تلك الأكمة العالية تبعد عن المكان الذى كنا فيه نحو مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر، فخیل إلینا نحو مبعوثى خوارزمشاه أن تلك الأكمة العالية ربما كانت جبلا تكسوه الثلوج، فسألنا المرشدين وأهل المنطقة، فقالوا لنا: إنما هى مجموعة عظام الذين قتلوا. وعندما تقدمنا مرحلة أخرى فى الطريق، كانت الأرض قد صارت لزجة سوداء (بسبب ما اختلط بها من دماء الأدميين)... وعندما وصلنا إلى أبواب طمغاج وجدنا فى موضع أسفل برج القلعة عظاما آدمية كثيرة، فاستفسرنا عنها، قيل: إنه فى يوم فتح المدينة ألقى أهلها بعشرين ألف فتاة عذراء من هذا البرج، فهلكن هناك حتى لا يقعن فى أيدي جيش المغول، فهذه العظام كلها ما هى إلا رفات تلك الفتيات.





شعر «السلطان محمد» بغیظ شديد تجاه هذه الرسالة، إذ كانت تحمل في طياتها طابع التهديد والوعيد، فضلاً عن الإهانة التي شعر بها حين اعتبره «چنكيزخان» في منزلة الابن، وهذا يعنى التبعية للمغول. ومهما يكن من أمر فقد وافق «السلطان محمد» على إبرام المعاهدة التجارية التي عرضها عليه «چنكيزخان» إلا أنه سرعان ما قضى عليها بنفسه وهى مازالت فى مهدها، لشعوره بأنه مازال قويا، ويجب عليه ألا يعبأ بهؤلاء الهمج من المغول، فضلاً عما عرف عنه من تكبر، وبغض للتواضع والتملق والمداينة.

بعث «چنكيزخان» - ثانية -

برسالة إلى «السلطان محمد»، وكان يحملها مجموعة من التجار وبصحبتهم عدد من أتباع «چنكيزخان»، وكانت القافلة كلها من المسلمين، ووصلت إلى مدينة «أترار» التي تقع على حدود ممالك «السلطان محمد»، فطمع «نيال خان» حاكم هذه المدينة فى الهدايا التي تحملها هذه القافلة، وبعث إلى «السلطان محمد» يخبره بأمرهم، وشكه فى أنهم ربما يكونون جواسيس، فأمره السلطان بقتلهم على الفور، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً تمكن من الفرار، وذهب إلى بلاط «چنكيز» وأخبره بما حدث، فاستشاط غضباً، وهاله الأمر .

إن الخان الكبير (يعنى چنكيز)

يسلم عليك، ويقول: ليس يخفى على عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانتك، ولقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادى، وغير خاف عليك - أيضاً - أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادى ماثرات العساكر، ومعادن الفضة، وإنها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد.

وعندما شاهدنا «چنكيزخان» أحضروا أمامنا ابن التون خان (إمبراطور الصين) ووزيره مقيدىن. ولدى عودتنا أرسلوا معنا إلى خوارزمشاه الكثير من التحف والهدايا، وقال لنا: قولوا لمحمد خوارزمشاه:

إننى ملك مشرق الشمس، وأنت ملك مغرب الشمس، وبيننا عهد ومودة ومحبة وصلح مستحكم، فليستمر التجار، ولتستمر القوافل رائحة غادية بين الطرفين، ولينقلوا إليك الطرائف والسلع التى فى ولايتى، وبلادك أيضاً يكون لها نفس الحكم.

إلى غزو «بغداد»، فعاد إلى بلاده خائباً منكسراً فى سنة (٦١٤هـ)، فكانت هذه أول صدمة صادفته منذ ولى أمور الحكم فى سنة (٥٩٦هـ)، ولذلك قال أحد المؤرخين: «إن هيبة السلطان قد قلت فى قلوب الناس بعد عودته من العراق، وعد الناس قصده دار الخلافة شؤماً عليه». لم يعد «السلطان محمد» إلى بلاده مباشرة حين رجوعه من «العراق»، وإنما توجه إلى بلاد «ما وراء النهر»، واستقبل هناك وفداً من تجار المغول المسلمين، برئاسة «محمود الخوارزمى» الذى تنتمى أسرته إلى إقليم «خوارزم»، حاملاً رسالة من «چنكيزخان» إلى «السلطان محمد» يقول له فيها:

كان «السلطان محمد» -آنذاك- يشعر أنه فى أوج قوته، فقد استطاع بسط سيطرته ونفوذه على «إيران» بأكملها عدا ولايتى «فارس» و«خوزستان»، وضم «العراق» وبلاد «ما وراء النهر» و«تركستان الشرقية»، وفكر - فى وقت ما - فى غزو بلاد «الصين» وضمها إلى حوزته، كما فكر فى أن تكون له الهيمنة على «بغداد» والخلافة العباسية، كما كانت لسلطين السلاجقة، ولكن أمله خاب فى هذا الشأن حين هاجمت جيوشه العواصف والأمطار الغزيرة والثلوج، ومات عدد كبير من جنوده وهلكت خيوله فى طريقه



رفض «السلطان محمد» احتجاج «چنكيزخان» كما رفض تسليم «نيال خان»، وأمر بقتل الوفد المغولي الذي حمل إليه الرسالة، وكان ذلك في عام (٦١٥هـ)، الذي بدأ «چنكيزخان» فيه الاستعداد لحرب الخوارزميين، ووضع خطة لذلك، وبدأها بتأمين ظهره من المناوئين لسلطته، وقضى على دولة «النايمان» وحاكمها «كوچلك خان»، فبات الطريق أمامه مفتوحاً لغزو «الدولة الخوارزمية».

تسرب القلق والحيرة إلى نفس «السلطان محمد»، وغلب عليه التوتر والخوف، وجفاه النوم، كلما سمع باقتراب المغول من بلاده، وأشار عليه بعض مستشاريه بجمع جيش كبير يقف به على ساحل «نهر سيحون»؛ ليحول دون عبور المغول إلى بلاد «ما وراء النهر»، ولكن الأمراء الخوارزميين أشاروا عليه بأن يستدرج المغول ويدعهم يعبرون إلى بلاد «ما وراء النهر»، ثم يستدرجهم إلى الجبال والممرات التي يصعب عبورها، ثم ينقض عليهم بجيوشه من كل جانب، فراقت هذه الفكرة «السلطان محمد»، وفرق جيشه وأمراءه على المدن الرئيسية ببلاد «ما وراء النهر». ولبت محمد خوارزمشاه ينتظر المغول، ثم ترك جيوشه وقواده ببلاد



كان «چنكيزخان» يظن أن «الدولة الخوارزمية» دولة قوية متماسكة، وليس بوسعها غزوها، إلا أنه أدرك أن الحـرب مع الخوارزميين لا مفر منها، وعليه أن يترىث قليلاً حتى يعد لذلك العدة، فبعث برسالة يحملها وفد رسمي من أتباعه المسلمين إلى «السلطان محمد»، يقول له فيها:

«إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ألا تعرض لأحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه نيال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلم نيال خان إلى، لأجازه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح».

«ما وراء النهر» وعاد إلى «خراسان» بسبب بعض الأمور الداخلية التي أقلقته، والتي كان من أبرزها سيطرة أمه وزيادة نفوذها على البلاد والجيش، لدرجة أنها تفوقت عليه في النفوذ. فلما وصل «چنكيزخان» إلى بلاد «ما وراء النهر»، قسم جيوشه عليها، وتمكن من السيطرة على هذه المنطقة في وقت قصير، واستولت جيوشه على «أترار» و«بخارى» و«سمرقند»، وأمهاة مدن بلاد «ما وراء النهر»، ولم يجد المغول المقاومة الشرسة التي انتظروها،

فأدرك «چنكيز» حالة السلطان النفسية، وعمد إلى المبالغة في القتل والسلب والنهب ليزداد خوف الخوارزميين وغيرهم، وقتل سكان مدينة «أترار» عن بكرة أبيهم، وأحرق «بخارى» عن آخرها، وقتل كثيراً من سكانها، وأخذ من بقي منهم على قيد الحياة رقيقاً؛ ليستخدمهم في حروبه التالية، فجمع الخوارزميون أمرهم على بناء سور عظيم حول مدينة «سمرقند» آخر أمل لهم في الصمود والبقاء، ولكن المغول كانوا أسرع منهم ووصلوا إلى «سمرقند» قبل أن

يشرعوا في بناء سورها، وتمكنوا من اقتحام هذه المدينة، فانهار الأدبار من مكان إلى مكان، وأرسل بعض أتباعه لكى ينقلوا زوجاته وبنيه من «خوارزم» إلى «مازندان»، فانتقلت عدوى الخوف والاضطراب من السلطان الهارب إلى ثقافته وأتباعه ومستشاريه، واختلفت بينهم الآراء فيما ينبغي أن يقوموا به في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، واستقر الأمر بالسلطان إلى أن اختار التوجه إلى بلاد العراق العجمي غربي «إيران»؛ ليعتد





بنفسه وجيشه قدر الإمكان عن هؤلاء الغزاة، ثم يستجمع قواه وجنوده، ويستعد للقاء المغول، وعاد من جديد وولى وجهه شطر الشمال الغربي إلى «نيسابور»، وأثناء ارتحاله سمع بسقوط «بخارى» و«سمرقند» في أيدي المغول فزادت حالته النفسية سوءاً. وما لاشك فيه أن السرعة التي تمتعت بها جيوش المغول في الاقتحام والتوغل، كانت من العوامل التي تركت آثاراً نفسية بعيدة الغور في نفوس المسلمين، مثلها في ذلك مثل المذابح الرهيبة التي نصبوها بعد فتح المدن

بأنفسه وجيشه قدر الإمكان عن هؤلاء الغزاة، ثم يستجمع قواه وجنوده، ويستعد للقاء المغول، وعاد من جديد وولى وجهه شطر الشمال الغربي إلى «نيسابور»، وأثناء ارتحاله سمع بسقوط «بخارى» و«سمرقند» في أيدي المغول فزادت حالته النفسية سوءاً. وما لاشك فيه أن السرعة التي تمتعت بها جيوش المغول في الاقتحام والتوغل، كانت من العوامل التي تركت آثاراً نفسية بعيدة الغور في نفوس المسلمين، مثلها في ذلك مثل المذابح الرهيبة التي نصبوها بعد فتح المدن

المحاصرة؛ وهي المدن التي تركوها خراباً يباباً، ليس فيها نفس واحد يتردد، كمدينة «نيسابور» التي قتلوا كل من فيها من الأحياء حتى القطط والكلاب، وبقروا بطون الحوامل، وأخرجوا الأجنة منها وذبحوها. ولاشك أنه كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى حدوث هذه الحالة من الشلل التي أصابت تفكير الناس وحركتهم تجاه المغول أثناء غزوهم لبلادهم، فإلى جانب السرعة التي تمتع بها المغول في التحرك والقسوة المتعمدة، ساعد مظهرهم البغيض، وما كانوا عليه من عادات قبيحة

كريبة على زيادة الرعب والفرع والقلق والخوف في قلوب الناس . وكان المغول إذا أرادوا الإغارة على مدينة، بعثوا برسالة إلى أهلها ويختمونها بقولهم : «ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام لنا، والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم» . وهكذا نظر المسلمون إلى المغول وتصرفاتهم بالكثير من الاشمئزاز والنفور والكراهية، باعتبارهم غير خاضعين للمقاييس والمعايير الإنسانية الأساسية، ولذلك امتلأت نفوس الناس بالرعب منهم .

تعرض «السلطان محمد» لمحاولة قتله على أيدي بعض المتمردين من قاداته قبل أن يدخل «نيسابور» ، إلا أنه تمكن من النجاة، وسارع بالتوجه إلى «نيسابور»، فلما دخلها جاءته الأخبار بأن «چنكيزخان» بعث جيشاً كبيراً في أثره للقضاء عليه، فسانطق بقواته المتبقية إلى الشمال الغربي، فما لبثت هذه القوات التي كانت تصاحبه أن انفرط عقدها، وتفرقت من حوله، واستطاع «السلطان محمد» أن يهرب بنفسه ومعه بعض أولاده إلى جزيرة منعزلة في «بحر قزوين»، ثم اعتلت صحته، واهتدى الجيش المغولي الذي كان يطارده ويتعقبه إلى القلعة التي كانت تختبئ فيها زوجاته في «مازندان»، فاقتحموها وأسروا زوجاته، وقتلوا من وجدوه بالقلعة من أبنائه ورجاله، فلما علم «السلطان محمد» بذلك فقد وعيه، واستولى عليه القلق والاضطراب، وأخذ يبكي بكاءً مراً حتى وافاه أجله في سنة (٦١٧هـ) بعد أن استولى المغول على معظم أقاليم «إيران» وأحسنها . وهكذا كان للعامل النفسي دوره واعتباره في حروب «چنكيزخان» على «الدولة الخوارزمية»، وهو دور لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبته العوامل السياسية والعسكرية التي تسببت في هزيمة الخوارزميين واندحارهم أمام الغزاة .



السلطان

جلال الدين المنكبرتي وجهاده ضد المغول

* المرحلة الأولى من جهاد جلال الدين :

كان السلطان «محمد خوارزمشاه» - قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة - قد منح ولاية العهد لابنه الأكبر «جلال الدين»، المعروف باسم «منكبرتي» بدلا من ابنه «أوزلاغ» المعروف باسم «قطب الدين»، وتوجه «جلال الدين» - عقب وفاة أبيه - إلى «خوارزم»، فقبول بمعارضة شديدة من أتراك «القنقلي» الذين يتكون

منهم عصب الجيش، حيث كانوا يرغبون في أن يكون «غياث الدين» سلطانهم؛ لأن أمه من طائفتهم، ولم يكتف هؤلاء الجنود بالمعارضة، بل دبروا لقتل «جلال الدين»، إلا أنه تمكن من الفرار بأتباعه عبر الصحراء إلى «غزنة»، التي كان هو واليه في عهد أبيه، ويعرفه الناس هناك ويحترمونه ويقدرون كفاءته العسكرية وأعماله البطولية.

واستطاع هناك تكوين جيش كبير بلغ ثلاثين ألف مقاتل، وانضمت إليه الفلول التي كانت هاربة من المغول، وبذلك ألحق هزيمة كبيرة بمقدمة أرسلها المغول للبحث عنه في هذه المنطقة في سنة (٦١٨هـ).

خشى «چنكيزخان» أن يتسع نفوذ «جلال الدين» فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أحد كبار القادة المغول لمحاربه، فالتقى الجيشان بالسهول القريبة من «بروان»، واستطاع «جلال الدين» أن يلحق هزيمة ساحقة بالجيش المغولي، وسمع الناس بذلك ففرحوا فرحاً شديداً، وثار أهالي «هراة» في وجه رئيس الحامية المغولي وقتلوه هو وجنوده، فبعث «چنكيز» بابه «تولوي» إلى هذه المدينة، فدمرها وقتل جميع سكانها، وخرج «چنكيز» بنفسه على رأس جيش كبير لملاقاة «جلال الدين»، في الوقت الذي حدث فيه خلاف بين اثنين من قادة «جلال الدين» على توزيع الغنائم،

وانسحب أحدهما بجنوده تاركاً «جلال الدين» في هذه الظروف الحرجة، فاضطر إلى الانسحاب بجنوده صوب بلاد «الهند» - حين سمع بقدم المغول - ولكن «چنكيز» أدركه، ودارت بينهما معركة حامية؛ أبلى فيها «جلال الدين» بلاءً حسناً، ولكن جيش «چنكيز» كان أقوى عدة وأكثر عدداً فأدرك «جلال الدين» أنه لا فائدة من القتال، وانطلق صوب «نهر السند» وعبره بجنوده، فلم يصل منهم إلى الجانب الآخر من النهر إلا أربعة آلاف فارس، وبقي «جلال الدين» في بلاد «الهند» بضع سنوات (٦١٨ - ٦٢٢هـ)، ثم عاد بعدها إلى «إيران».



* وفاة چنكيزخان وتقسيم الإمبراطورية المغولية :

بعد أن سيطر «چنكيزخان» على كل المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، وعين عليها ولاية من قبله؛ عاد إلى بلاده، ثم توفي في سنة (٦٢٤هـ)، فعقد المغول مجلساً عاماً للمشاورة فيمن يخلفه على العرش، واتفقوا على أن يتولى العرش «تولوي» أصغر أبناءه، ثم قسمت - بعد ذلك - الأراضي التي سيطر عليها المغول بين أبناء «چنكيز» الأربعة :

«چوچی» : واختص بالجزء الواقع «جنوب روسيا» الحالية، ويبدأ من جنوب «بحر قزوين» في

الغرب حتى سواحل «نهر آرتش» في الشرق، وكان اسم هذه البلاد «القبيجاك»، وعرف أبناء «چوچی» باسم «القبيلة الذهبية» نسبة إلى المخيمات التي اتخذوها لأنفسهم بلون الذهب.

«چغتای» : واختص بالقسم الذي يضم بلاد «الأويغور» ومنطقة بلاد «ما وراء النهر».

«أوكتای» : واختص بجزء صغير في غربي «منغوليا».

«تولوي» : واختص بالمنطقة الأصلية التي عاش فيها المغول .

ثم ما لبث المغول أن اختاروا «أوكتای» إمبراطوراً أعظم للمغول في سنة (٦٢٦هـ).

* المرحلة الثانية من كفاح جلال الدين :

انتهز «جلال الدين» فرصة انشغال المغول عن البلاد الفارسية بعد وفاة «چنكيز» وانطلق بجيشه نحو «إيران»، وعبر «نهر السند»، ودخل في حروب عديدة مع مَنْ رآهم سبباً فيما حلّ بالدولة الخوارزمية، فحارب «الأتابكة» في «فارس» و«كرمان» و«يزد»، ثم حارب الخليفة العباسي، وانتصر عليهم جميعاً، ولكن مجموعة من الولاة الذين يحكمون بلاد «ما وراء النهر» بقيادة «الملك الأشرف الأيوبي» في «الموصل»، تمكنوا من إلحاق الهزيمة بجلال الدين، فاستغل

«الإسماعيلية» الفرصة وأرسلوا إلى «أوكتاي» إمبراطور المغول يخبرونه بأن الحلف العربي هزم «جلال الدين»، وقد أقدم «الإسماعيلية» على ذلك لأن «جلال الدين» حاربهم من قبل وانتصر عليهم، فجرد «أوكتاي» جيشاً كبيراً قوامه (٥٠) ألف جندي بقيادة أشهر قواده «جرماغون»، الذي تمكن من مطاردة «جلال الدين» وتفريق جيشه، ففر «جلال الدين» في سنة (٦٢٨هـ) إلى «الجبال الكردية» الواقعة في منطقة «جبال - بكر»، فقتله هناك أحد الأكراد حين عرف أنه السلطان، ثاراً لمقتل أخيه على يد جيش «جلال الدين» في إحدى الحروب.



غزو هولاءكو لغرب إيران وقضاؤه على الخلافة العباسية

هولاءكو والإسماعيلية :

بعد سلسلة من الصراعات على السلطة بين أمراء البيت الملكي، انتقل الحكم إلى بيت «تولوى بن چنكيزخان»، وتولى «منكوقا آن ابن تولوى» الحكم في سنة (٦٤٨هـ)، وعمل منذ تسلم أمور الحكم على تنفيذ التوجهات التوسعية التي كانت تضطرم بها نفوس المغول، فأرسل أخاه «قويلاي» على رأس جيش كبير للسيطرة على جنوب «الصين» ومنطقة «جنوبي شرق آسيا»، وأرسل أخاه الأصغر «هولاءكو» إلى «إيران» وبقية العالم الإسلامي للسيطرة عليها، وحدد له هدفين هما :

١ - القضاء على «الإسماعيلية».

٢ - القضاء على الخلافة العباسية.

تحرك «هولاءكو» من «سمرقند» في سنة (٦٥٣هـ) وأرسل طليعة جيشه لاستكشاف قلاع «الإسماعيلية» ومهاجمة بعضها؛ حيث كان «الإسماعيلية» يقيمون قلاعهم على قمم الجبال، بحيث يصبح مهاجموهم تحت سيطرتهم مباشرة، فإذا ما هاجمهم جيش أرسلوا عليه وابلا من السهام والحجارة لإعاقة حركته، ومنعه من الصعود، فلا يصل إليهم، وكانت

أهم هذه القلاع التي يحتفظون فيها بالمؤن الكثيرة، قلاع: «الموت»، و«ميمون در»، و«لبنه سر» و«كردكوه».

أرسل «هولاءكو» قائده «كيتبوقا نوين» لفتح قلعة «كردكوه» فاستعصت عليه، فسار «هولاءكو» بنفسه لفتحها في أواخر سنة (٦٥٣هـ)، إلا أنه لم يتمكن منها، وفتح بعض القلاع الصغيرة، فحل به وبجنوده اليأس، خاصة وقد حل شتاء سنة (٦٥٤هـ)، وقلت الأغذية، وتعرضت جيوشه للهجمات الفدائية التي قتلت الكثيرين من الجنود، فعمد «هولاءكو» إلى الحيلة وسياسة الترغيب والترهيب، فنجحت حيلته، وبعث إليه «ركن الدين خورشاه» ملك «الإسماعيلية» برسالة يعلن فيها استعداد

للتسليم، فوافقه «هولاءكو» وأمنه، وسلم «خورشاه» نفسه في سنة (٦٥٤هـ) وقتله المغول بعد فترة قصيرة، ثم سيطروا على قلاع «الإسماعيلية» وأطرافها، واتخذ «هولاءكو» من الفيلسوف والعالم الفلكي الرياضي «نصر الدين الطوسي» الذي كان يعيش مع «الإسماعيلية» في قلاعهم؛ مستشاراً له ووزيراً.



* هولاكو وسقوط الخلافة العباسية :

بعد أن قضى «هولاكو» على «الإسماعيلية» ؛ توجه بجيش كبير نحو الغرب، وبعث برسالات التهديد إلى الخليفة العباسي؛ فرد عليه بالأسلوب نفسه اعتقاداً منه أن حكام الدول الإسلامية سيقفون إلى جواره في صد الخطر المغولي عن رمز العالم الإسلامي، فاستشار «هولاكو» «نصر الدين الطوسي»

فزين له انهجوم على «بغداد»، فحاصرها في شهر المحرم سنة (٦٥٦هـ)، فخرج «الدواتدار» قائد الجيش العباسي على رأس قوة كبيرة في محاولة ل فك الحصار المغولي، فخدعه المغول وأوهموه أنه انتصر عليهم، وأخذوا يتراجعون إلى الخلف، فتوغل بجنوده بعيداً عن أسوار «بغداد» ، فأطبق عليه المغول من كل جانب وحاصروه وفتكوا بجنوده، وتمكن من الفرار بأعجوبة مع عدد قليل

من جنوده، وعاد بهم إلى «بغداد». عمد «هولاكو» إلى إغراء الخليفة العباسي «المستعصم بالله»^(٣) بالوعد الكاذبة، فسلم الخليفة نفسه وأهله وأمواله إلى «هولاكو»، فأمر بقتله؛ ثم دخل المغول «بغداد»، واستباحوها، وهدموا أكثر مبانيها، وقتلوا نحو مليون شخص، وجمع المغول كل الكتب والمخطوطات التي كانت موجودة بمكتبة «بغداد»، وألقوها في «نهر دجلة» لتكون جسراً يتمكن الجنود بواسطته من

عبور النهر إلى الجانب الآخر، وهكذا سقطت «بغداد» بعد أن ظلت أكثر من خمسة قرون (١٣٢ - ٦٥٦هـ) حاضرة المسلمين، ومنازة العلم والحضارة للعالم الإسلامي، وترتب على ذلك انتقال مركز الخلافة من «بغداد» إلى «مصر» في سنة (٦٥٩هـ)، وفقدت

اللغة العربية سيادتها في «إيران» والمشرق الإسلامي، وعادت الفارسية ثانية واحتلت الرقعة العلمية والثقافية في هذه البلاد، كما كان لسقوط «بغداد» رنة فرح شديدة عند النصارى ، الذين أشادوا بهولاكو وهللوا له ؛ لأنه خلصهم من منافسهم الخطير المتمثل

في الخلافة الإسلامية ، غير أنهم ندموا على سقوط هذه الخلافة بعد ذلك ، حين تبين لهم سماعة المسلمين في المعاملة ووفاءهم بالعهد ، وهذه الصفات لم يكن المغول يتمتعون بها، ولا يعرفون عنها شيئاً .



* هزيمة المغول في عين جالوت:

توقف «هولاكو» ببغداد فترة ، ثم أرسل جيشاً بقيادة قائده «كيتبوقا» أو «كتبغا» كما يسميه المؤرخون العرب للسيطرة على «فلسطين» و«مصر» في سنة (٦٥٨هـ)، وكان يحكم «مصر» - آنذاك - «سيف الدين قطز»، وعلم بمقدم المغول، فتأهب بجيشه بقيادة «ركن الدين بيبرس» (الظاهر بيبرس البندقداري) للدفاع

عن «فلسطين»، والتقى بجيش المغول في منطقة «عين جالوت» في رمضان سنة (٦٥٨هـ)، وأسفرت المعركة عن هزيمة منكرة لحقت بالمغول ، لأول مرة منذ عهد السلطان «جلال الدين الخوارزمي»، وتم أسر قائد الجيش المغولي «كتبغا» ثم قتله، فكان لهذه المعركة عدة نتائج من أهمها : أنها حالت دون تقدم المغول إلى «مصر»، وقضت على خرافة الجيش المغولي الذي لا يقهر،

وتبدو أهمية هذه المعركة إذا ما تصورنا أن الهزيمة هي التي حلت بالمسلمين، فلا شك أن المغول كانوا سيقضون على آخر معقل للإسلام في «فلسطين» و«مصر». وأدى نجاح المصريين في هذه المعركة إلى إقرار الأهمية الكبرى للوحدة بين «مصر» وبلاد الشام، وإلى توطيد العلاقات بين المماليك

في «مصر» والشام وحكام منطقة «القبجاق»، الذين كان يحكمهم -آنذاك- «بركة خان بن چوچی بن چنکیزخان»، الذي اعتنق هو ورعيته الإسلام، وطلب العون من المماليك في «مصر»، لكي يقفوا إلى جانب بلاده ضد «المغول الإيلخانيين» الذين كانوا يحكمون «فارس»، ولاشك أن هذه المعركة أكسبت «القاهرة» مكانة ممتازة في الجانب السياسي ، إلى جانب ما كانت تتمتع به من مكانة

حضارية وثقافية وعلمية . ولقد ارتد المغول على أعقابهم بعد ذلك وانحصر مدهم، وتقلص نفوذهم حتى حدود منطقة «العراق»، وانشغل «هولاكو» بالحروب الكثيرة التي دخلها مع «بركة خان»، ولم يستطع أن يتفرغ للتأثر من المصريين الذين هزموه في «عين جالوت»، حتى مات في سنة (٦٦٣هـ)، بعد أن عين «شمس الدين محمد الجويني» وزيراً، وعهد إلى أخيه «علاء الدين الجويني»

بحكم «بغداد». وظل المغول في حدود منطقة «العراق» حتى أقاموا دولتهم الجديدة التي عُرفت باسم «الدولة الإيلخانية» في «إيران» و«العراق» و«آسيا الصغرى».



خانات چغتاي الدولة الجغتائية

[٦٢٤ - ٧٦٠هـ = ١٢٢٧ - ١٣٥٨م]

* النشأة والتكوين :

تنسب «الدولة الجغتائية» إلى مؤسسها «چغتاي» الابن الثاني لچنكيزخان الذي أصبح ولي عهده بعد وفاة أخيه الأكبر «چوچی» في حياة والدهما، فلما مات «چنكيزخان» في سنة (٦٢٤هـ = ١٢٢٧م)، آلت إلى «چغتاي» أملاك «الدولة الجغتائية» (خانات چغتاي)، التي تُعرف باسم : «منطقة التركستان»، وهي تعتبر حداً فاصلاً بين دولة «القبيچاق» ودولة «الخاقانات».

حكم «چغتاي» مؤسس هذه الدولة منذ وفاة والده في عام (٦٢٤هـ = ١٢٢٧م) إلى عام (٦٣٩هـ = ١٢٤٢م)، وكان رجلاً حازماً وصارماً وعنيفاً، ذلك لأنه كان المسئول عن تنفيذ الیاسا، وقد اشتهر بسوء معاملة المسلمين، وتعطشه لسفك دماهم.

* ثورة تارابی :

تنسب هذه الثورة إلى زعيمها «محمود التارابی»، الذي كان يعمل صانعاً للغرابيل، بقرية «تاراب»؛ أقدم قرى مدينة «بخارى»، وهدفت هذه الثورة - التي أطلق عليها بعض المؤرخين الفرس: حركة شعبية - إلى رفض الحكم المغولي، واعتمدت



على الدين كأساس لها في ذلك، فالتف الناس حولها، على الرغم من أن دعائها اعتمدوا على الخرافات، وادعوا اتصالهم بالآرواح، إلا أن انضمام «شمس الدين المحبوبي» أحد علماء «بخارى» إليها أكسبها قوة؛ إذ كان على خلاف مع أئمة «بخارى»، فساند «محمود تارابی» زعيم الثورة، وذكر له أن أباه قرأ في أحد الكتب نبوءة مفادها : أن رجلاً سيظهر ببخارى، سيكون فتح العالم على يديه، وأن مواصفات هذا الرجل تنطبق على «محمود تارابی»، وأكد المنجمون صدق ذلك، وأعلنوا أن نجم «محمود تارابی» قد بزغ، وأن الحظ سيحالفه، ولأن هذه المعتقدات كانت سائدة آنذاك، فقد اهتم الناس بأقوال المنجمين، والتفوا حول زعيم هذه الثورة، وحققوا انتصارات كبيرة، ودخلوا «بخارى»، غير أن المغول تمكنوا من صد الثورة ومقاومتها، وسقط «التارابی» و«محبوبي» صريعين، فأعلن الثوار «محمدًا» و«عليًا»، أخوي «تارابی»، زعيمين للثورة، فعزز المغول قواتهم، وتمكنوا من القضاء على هذه الثورة، وقبضوا على الثائرين، وأرادوا معاقبتهم، ولكن «محمود يلواج» استطاع الحصول على العفو لهم من قادة المغول.

* العلاقات الخارجية:

كانت دولة «خانات چغتاي» دولة تابعة للدولة الأم التي أسسها «چنكيزخان»، وكانت ذات علاقة حدودية بين هذه الدولة الأم (دولة الخاقانات) من جانب، ودولة «القبيچاق والإيلخانية» من جانب آخر؛ ولذلك فقد دخلت في صراعات طويلة مع هذه الدول بسبب موقعها المتوسط بينها، ولم تكن صراعاتها من أجل التوسعة أو الوصول إلى حكم دولة مغولية أخرى، وإنما كان صراعاً على عرش «دولة الخاقانات»؛ فعندما توفي «متكوكا آن» الحاكم الأعظم (الخاقان)^(٤) لدولة «خاقانات المغول»، كان ابنه «قوبيلاي» يقود الجيوش ببلاد «الصين» لتوسعة أملاك «دولة الخاقانات» بها، وكان «أريق بوقا» في «قراقورم» عاصمة الدولة، وتم إعلانهما خاقانين على البلاد خلفاً «لمتكوكا آن»، وحيث إن «قراقورم» كانت منطقة فقيرة،

فقد أراد «أريق بوقا» أن يوفر لقواته ما يلزمهم، وأغار على «الدولة الجغتائية»، وأخضع حاكمها «آغو



منذنة مسجد كيلان ببخارى

ابن بايدار ابن چغتاي» تحت سلطانه ليأمن شره، ويضمن عدم تحالفه مع غيره، ولكن ذلك لم يتم؛ فقد انقلب عليه حاكم «الدولة الجغتائية» وانضم إلى «قوبيلاي قا آن» حين عاود من «الصين»، واعترف به خاقاناً للمغول، فاضطر «أريق بوقا» إلى الاستسلام لخصمه «قوبيلاي»، الذي انفرد بحكم دولة الخاقانات وأسس بها حكماً جعله لأسرته، التي عُرفت في التاريخ باسم : «أسرة اليوان».

وهكذا دخلت «الدولة الجغتائية» في صراع لم تكن سبباً في حدوثه، بل لم تسلم من الصراعات بعد ذلك، فقد دخلت في صراع مع «قايدوخان» (وهو من نسل أوكتاى قا آن)، بتحريض من «بركة خان» حاكم «القبيچاق»، ودارت الحروب سجلاً بين الطرفين إلى أن مات «آلغوا بن بايدار» حاكم «الجغتائيين»، فاعتلى «مباركشاه» عرش الدولة في عام (٦٦٢هـ = ١٢٦٤م)، ولكنه لم يلبث طويلاً في الحكم، إذ استطاع «براق خان» الاستيلاء على العرش في عام (٦٦٤هـ = ١٢٦٦م)، بمساعدة «قوبيلاي قا آن» خاقان المغول، وذلك يؤكد أن العلاقة الخارجية لهذه الدولة كانت ذات صلة وثيقة بالسياسة الخارجية لدولة «خاقانات المغول».

* مظاهر الحضارة في الدولة الجغتائية :

تُعد «بخارى» أعظم مدن «الدولة الجغتائية»، وكانت حاضرتها التي يشار إليها بالبنان ضمن بلاد «ما وراء النهر»، إذ كانت تزخر بالأبنية الفخمة، والحدائق الغناء، والبساتين والمتنزهات والثمار الكثيرة، التي يعد البرقوق أشهرها حتى الآن، كما كانت سوقًا ومركزًا تجاريًا مهما، فيها مصانع للحزير والديباج، وأخرى للمنسوجات القطنية، وكذلك كانت ذات مكانة خاصة في العالم الإسلامي، ولم يضارع «بخارى» في كل ذلك سوى «سمرقند» بأضرحتها وبفواكهها، ومصنوعاتها من الجلود والمنسوجات القطنية. ولعل القارئ يتساءل كيف انتعشت الحضارة في «بخارى» و«سمرقند» مع ما لحق بهما من دمار عمّ بلاد «ما وراء

النهر» أثناء الغزو المغولي؟ خاصة وأن أحد البخاريين الذين فروا من الدمار الذي لحق بمدينته أخبر عن حالها - بالفارسية- حين سئل عن ذلك بقوله : «أمند وكندند وسوخستند وكشتند وبردند ورفتند».

وترجمة ذلك :

«جاءوا، ودمروا، وأحرقوا، وقتلوا، ونهبوا، ثم رحلوا».

فكانت إجابته تصويرًا لما لحق بهذه المدينة التي خرّجت العلماء الأجلاء، ولم تكن «سمرقند» بأسعد حظًا منها، ولكن لم تمض

عدة سنوات حتى استعادت هذه المناطق رونقها وبهاءها، لوفرة المحاصيل الزراعية بها، ولرغبة المغول في كسب ود هذه البلاد؛ لأنها مركز الثورات، وحركات التمرد والعصيان ضدهم، لذا تمكنت هذه البلاد من استرداد قوتها وإعادة بنائها مرة ثانية .

ولقد شهدت بلاد «ما وراء النهر» فترة ازدهار حضارى على يد حاكمها «مسعود يلواج» في ظل «الدولة الجغتائية»، وبنى بخارى مدرسة نسبها إليه هي «المدرسة المسعودية»، فدمرها الإيلخانيون في عام (١٢٧٣م)، فأعاد البخاريون بناءها ثانية، ودفن بها «مسعود يلواج» في عام (١٢٨٩م). ولم يقتصر مجهود «يلواج» على «بخارى» وحدها، بل تعداها ليشمل منطقة حكمه كلها، وشيد «بكاشغر» «مدرسة مسعودية» أخرى. وبذا تمكنت بلاد «ما وراء النهر» من الصمود أمام غزوات المغول عليها، وأن تعيد بناءها بفضل موقعها ومناخها، وبفضل حكامها الذين عملوا على تأسيس الحضارة فيها وبنائها .



جنكيز خان



منمنمة لفرسان المغول يحاصرون إحدى المدن

ثانياً : المشرق الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية

لدولة الإيلخانية في إيران والعراق

[٦٥٤ - ٧٤٤ هـ = ١٢٥٦ - ١٣٤٤ م] :

تعود تسمية الدولة الإيلخانية بهذا الاسم إلى هولاكو خان الذي لُقّب بإيلخان، وهي كلمة مكونة من مقطعين «إيل» بمعنى تابع، و«خان» بمعنى ملك أو حاكم، والمقصود أن حاكم الدولة الإيلخانية تابع للخان الحاكم في قراقورم .



والحكم - منذ عهد «آباقا خان» - ممتازة، وجعل «آباقا» قائده الأمير «سونجاق» واليًا على «العراق» وإقليم «فارس»، ففوض هذا الأمير بدوره المؤرخ «علاء الدين عطا ملك الجويني» في حكم «العراق»، وعهد «آباقا» بمنصب الوزارة إلى «شمس الدين محمد الجويني» أخى «علاء الدين»، فكانا سببًا من أسباب ازدهار دولة «آباقا»، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الجوينيون في خدمة هذه الدولة وتوطيد أسسها، ودعم أركانها، فإنهم تعرضوا - في نهاية الأمر - لنكبة تشبه نكبة البرامكة

١ - آباقا خان :

وساعد البعد الجغرافي الذي يفصل بين «منغوليا» والإيلخانيين في «إيران» و«العراق»، على أن يتخذ الإيلخانيون أساليب وعادات ونظمًا وغير ذلك من التقاليد الحضارية التي كانت موجودة في «إيران»، والتي لم يعهدها المغول من قبل، فأصبح الإيلخانيون وكأنهم من ملوك الفرس .

اتخذ «آباقا» من «تبريز» عاصمة له، فاحتلت في عهده مكانة

يعد «هولاكو» المؤسس الأول لسلسلة سلاطين المغول في «إيران» و«العراق» الذين ظلوا يحكمون هذه البلاد من سنة (٦٥٤ هـ) حتى سنة (٧٥٦ هـ)، وقد تُوفى «هولاكو» سنة (٦٦٣ هـ)، وخلفه ابنه «آباقا خان» في حكم البلاد، التي امتدت من «نهر جيحون» حتى «العراق العربي» غربًا، ومن جنوبي روسيا شمالًا حتى «البحر العربي» جنوبًا.

وقد جنت الدولة الإيلخانية



عندما تكاثرت عليهم الأعداء والخصوم. وقُتل الجوينيون جميعاً في عهد «أرغون» سنة (٦٨٣هـ) الذي قضى على جميع أفراد هذه الأسرة.

تزوج «آباقا» ابنة إمبراطور «القسطنطينية»، فتوطدت علاقته بالنصارى، وأكثر من القساوسة في بلاطه، على الرغم من أنه كان إلى ذلك الوقت وثيقاً، وحرص المسيحيون على مداينة المغول

واجتلابهم نحو المسيحية؛ أملاً في انضمام هؤلاء المحاربين الأشداء إلى صفوف النصارى ومحاربة أشد أعدائهم المسلمين. وفي الوقت نفسه كان «آباقا» يريد من وراء توطيد علاقته بالمسيحيين أن يحصل على معاونتهم في حربه ضد المسلمين، وخاصة المماليك، ليثأر لهزيمة المغول أمامهم في «عين جالوت»، غير أن محاولاته ذهبت

جميعها عبثاً، ولحقت به الهزائم في كل مرة التقت فيها جيوشه بجيوش المماليك بقيادة «الظاهر بيبرس»، وكانت معركة «أبلستين» التي قامت بين الطرفين في عام (٦٧٥هـ) من أهم المعارك التي دارت بين الجانبين، وانتصر فيها المماليك في «مصر» و«الشام» انتصاراً حاسماً، ثم توفى «آباقا» في سنة (٦٨٠هـ).

٢ - أحمد تكودار [٦٨١ - ٦٨٣هـ]:

كان «آباقا خان» يريد أن يخلفه عن العرش ابنه «أرغون» لكنه لم يستطع لأن هذا الإجراء كان يعد مخالفة كبيرة لأحكام الدستور المغولي الذي وضعه جنكيز الذي يسمى «الياسا»، فقد كان يتعين إذا مات الخان أن يخلفه على العرش أكبر الأمراء الأحياء. ولقد كان أكبرهم هو «تكودار» وليس «أرغون»، ولذلك أجمع الأمراء المغول الذين اجتمعوا في المجلس العام الذي يسمى «قوريلتاي» وقرروا انتخاب «تكودار» إيلخائاً في سنة (٦٨١هـ).

اعتمد تكودار المسيحية في صغره، لكنه مال إلى الإسلام شيئاً

فشيئاً؛ لكثرة اتصاله بالمسلمين، وتوطيد علاقته بعظماء المسلمين وكبار أئمتهم، فأعلن إسلامه، وسمى بالسلطان «أحمد تكودار»، فكان أول من اعتنق الإسلام من الإيلخانيين.

كان إسلام السلطان «أحمد» عاملاً قوياً في تهذيب طباعه وتقويم خلقه، ولم يعد ذلك المغولي الذي كان كل همه سفك دماء المسلمين وتخريب ديارهم، وإنما أصبح يرى المسلمين إخوته، ويجب أن يحل بينهم الوثام؛ لذا تبادل الرسائل الودية مع السلطان «قلاوون» سلطان المماليك في «مصر»، فقضى بذلك - مؤقتاً - على الأحقاد والضغائن، ولم

تحدث حروب بين الجانبين، وكذلك كان لإسلام «أحمد تكودار» أثر كبير في «إيران»، فقويت شوكة المسلمين، وعادت المعابد البوذية وكنائس النصارى إلى مساجد كما كانت من قبل؛ ووصل المسلمون إلى المناصب الرئيسية في الدولة، وتطلع أبناء البلاد الأصليين من الفرس إلى شغل المناصب الإدارية بالدولة المغولية.

ونتيجة لذلك كله خاف أمراء المغول على مصالحهم الشخصية - خاصة أن السلطان كان يحرص على خطب ودهم - وبخاصة الأمير «أرغون» الذي كان يطمع في العرش فثار على السلطان «تكودار» وتمكن من قتله في سنة (٦٨٣هـ)، وضعت بذلك شوكة المسلمين في «إيران» ثانية.



٣ - أرغون خان [٦٨٣-٦٩٠هـ]:

بعد مقتل السلطان «أحمد» اجتمع الأمراء المغول ونصبوا الأمير «أرغون بن آباقا» إيلخاًا عليهم في جمادى الآخرة سنة (٦٨٣هـ)، فنصب ابنه «غازان» حاكمًا على «خراسان» وعين الأمير «نوروز» نائبًا له عليها، وأُنعِمَ على الأمير «بوقا» بلقب «أمير الأمراء»، وأُطلق يده في تسيير شئون الدولة، وقتل الوزير «شمس الدين الجويني» وجميع أفراد أسرته تقريبًا في شعبان سنة (٦٨٣هـ)، وذلك لموقفهم مع السلطان «أحمد تكودار» ومساندتهم له في المعركة التي دارت بينه وبين أفراد المغول بقيادة الأمير «أرغون»؛ والتي انتهت بمقتل السلطان وتنصيب الأمير سلطانًا.

* وزارة سعد الدولة اليهودي :

بعد مقتل الوزير الجويني «شمس الدين» ازداد نفوذ الأمير «بوقا» إلى حد كبير، وأصدر «الإيلخان» قرارًا يقضى بأنه ليس لأحد في الدولة الحق في محاسبة الأمير «بوقا» - حتى إذا ارتكب أكبر الجرائم - إلا السلطان نفسه. ولاشك أن هذه السلطة المطلقة التي حصل عليها «بوقا» جعلته يميل إلى الاستبداد والبطش والهيمنة على شئون الدولة، ولم يبق للسلطان (الإيلخان) إلا الاسم فقط.



لم يقتصر عدا «بوقا» على المسلمين وحدهم بل امتد بطشه إلى أمراء المغول أنفسهم، كما أنه لم يكن على دراية كافية بشئون البلاد الإدارية والمالية، فأدى ذلك إلى حالة من الفوضى والارتباك في البلاد، وقد أثار ذلك حنق الأمراء المغول وغضبهم وجعلهم يفكرون في التخلص منه، فحرضوا الإيلخان «أرغون» على التخلص من الأمير «بوقا».

وكان من أشد أعداء هذا الأمير طبيب يهودي يدعى سعد الدولة وكان اجتماعيًا؛ يكثر الاختلاط بالناس ويوسع دائرة معارفه بينهم، كما كان ملماً بأحوال الموظفين

ضده، فأمر السلطان بالقبض على «بوقا» وقتله بتهمة التآمر على السلطان، وتعيين الطبيب «سعد الدولة» وزيراً له على البلاد.

استطاع الوزير سعد الدولة أن يستميل إليه قلوب الناس برفع المظالم عنهم، وإجراء الصدقات على فقرائهم ومحتاجيهم، فمدحه الشعراء، وقصد بابه الأدباء والعلماء، ولكنه لم يكد يطمئن إلى ثبات مركزه في الدولة، وارتفع منزلته عند السلطان حتى أخذ يکید للمسلمين ويعمل على التضييق عليهم، فضايقوا به وتحينوا الفرصة للخلاص منه، كما ضاق

به الأمراء المغول لاستبداده بالحكم، وقضائه على ما كانوا يتمتعون به من نفوذ، وانتظروا كذلك الفرصة للقضاء عليه، فمرض «أرغون» فجأة، واشتد عليه المرض، وحاول الأطباء برئاسة «سعد الدولة» معالجته وإنقاذه بكل السبل، ولكنهم عجزوا عن ذلك، فقبض الأمراء المغول على «سعد الدولة» وقتلوه في شهر صفر سنة (٦٩٠هـ)، ولم يلبث الإيلخان بعده إلا فترة قصيرة ثم مات، فعمت مشاعر البهجة والسرور



أنحاء البلاد الإسلامية؛ لمقتل «سعد الدولة»، وثار الناس على اليهود في كل مكان، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا.

* سياسة أرغون الخارجية :

حاول «أرغون» أن يحد من نفوذ «مصر» في المشرق الإسلامي، فأقام علاقات سياسية وطيدة مع قادة الدول المسيحية مثل: «البابا» و«إدوارد الأول» ملك «إنجلترا»، و«فيليب لوبل» ملك «فرنسا»، تمهيدًا لتكوين حلف للقضاء على النفوذ المصري في «آسيا الصغرى»، و«العراق» و«الشام»، و«فلسطين». وشجعت هذه العلاقات (المغولية - الأوربية) عددًا من الرحالة الأوربيين على زيارة بلاد المغول، وسافر الرحالة الشهير «ماركو پولو» إلى العاصمة المغولية، وأقام في بلاط الإمبراطور المغولي «قوبلاي» نحو عشرين عامًا، عمل فيها مستشارًا له ووزيرًا. ولم تقع حروب تذكر بين الجانبين: المصري والمغولي - في عهد «أرغون» - لانشغال كل منهما بمشكلاته الداخلية.



٤ - كيخاتو خان [٦٩٠هـ] - ٦٩٤هـ]:

الأوراق، ويحرم التعامل بالذهب والفضة تحريمًا تامًا .

بعث الأمراء المغول عقب وفاة «أرغون» إلى أخيه «كيخاتو خان» يخبرونه بوفاة، فقدم على الفور من بلاد الروم التي كان يحكمها، وتولى عرش الإيلخانية في رجب سنة (٦٩٠هـ)، ثم عين «صدر الدين أحمد الزنجاني» وزيراً له، ولقبه بلقب «صدر جهان» وأوكل إليه التصرف في شئون الدولة كافة دون تدخل من أحد، وعين أخاه «قطب الدين الزنجاني» قاضياً للقضاة، وأطلق عليه لقب «قطب جهان»، ثم انصرف «كيخاتو» إلى ملذاته وشهوته وإنفاق الأموال في سبيلها دون حساب، فاضطربت مالية الدولة، وأصبحت خزانتها شبه خاوية ومهددة بالإفلاس، ووقف الوزير حائراً لا يدري ماذا يفعل حيال ذلك، فظهر له رجل اسمه «عز الدين محمد بن المظفر» - وكان على دراية بالأحوال المالية في «بلاد الصين» - واقترح عليه العدول عن استخدام الذهب والفضة في المعاملات المالية، واستخدام أوراق مالية - تعرف عند الصينيين باسم «الچاو» - بدلا منها، لإنقاذ البلاد من الإفلاس، كما فعل الصينيون، فاستحسن الوزير هذا الاقتراح، واستصدر قانوناً من الإيلخان في سنة (٦٩٣هـ) ينص على التعامل بهذه

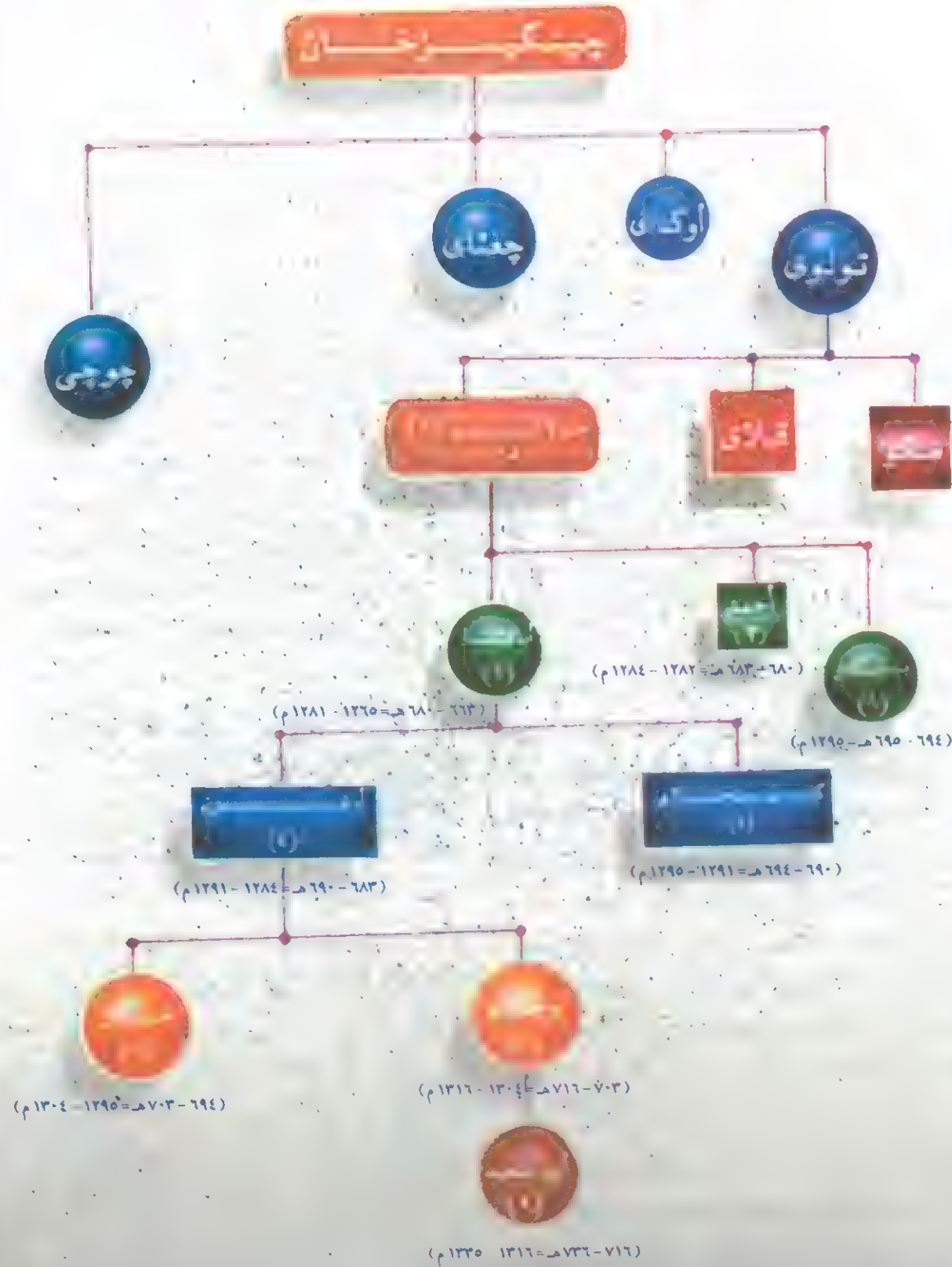
ولما كان «كيخاتو» مغرمًا بشرب الخمر، سئى الخلق فاسقًا، كرهه الأمراء وثاروا عليه، وبخاصة بعد أن أغلظ القول - ذات ليلة - لابن عمه «بايدو» أحد كبار الأمراء، فحقد عليه، وتآمر مع الأمراء الآخرين على قتله، وعلم «كيخاتو» بالمؤامرة، فآثر الفرار، ولكن الأمراء تتبعوه، وتمكنوا من قتله في سنة (٦٩٤هـ).

٥ - بايدوخان [٦٩٤هـ]:

بعد مقتل «كيخاتو» وقع اختيار الأمراء على «بايدوخان بن طرغاي ابن تولوي بن چنكيزخان» ليكون إيلخانًا، فاعتلى العرش في جمادى الأولى سنة (٦٩٤هـ)، ثم تخلص من أتباع «كيخاتو»، وقرر إعادة الحقوق والوظائف إلى أصحابها، وأعطى الأوقاف الإسلامية من الضرائب، وعهد بأمور الجيش ورئاسة الوزراء إلى الأمير «طغاجار»، وسلك مسلك «آباخان» حيث جعل الإدارة لا مركزية، وجعل أميراً من الأمراء على كل ولاية من الولايات، ونصب «جمال الدين الاستكرداني» وزيراً له.

لم يكد «بايدو» يتولى أمور الحكم حتى بلغ «غازان خان» ما حدث لعمه «كيخاتو»، فأقبل بجنوده ومعه الأمير «نوروز»، وأرسل رسله إلى «بايدو» ينكر عليه قتل كيخاتو، ويطلبه بإجراء تحقيق ليلقى القتلة جزاءهم، فلما لم يلق جواباً دارت رحى الحرب بين الفريقين، وفي هذه الأثناء عرض الأمير «نوروز» الإسلام على «غازان»، وحسن له اعتناق هذا الدين بتشريعاته السمحة ونظمه الدقيقة، وما ينادى به من عدل ورحمة ومساواة، فاعتنق «غازان» الدين الإسلامي، ومال إليه أكثر الأمراء، وانتصر على «بايدو» في

شجرة نسب الإيلخانيين



الحرب، فهرب «بايدو» ولحق به الأمير «نوروز»، وألقى القبض عليه، وأرسله إلى «غازان»، فأمر بقتله في شهر ذي الحجة عام (٦٩٤هـ).

٦ - السلطان محمود غازان [٦٩٤ - ٧٠٣هـ]:

تولى «غازان» عرش المغول عقب مقتل «بايدو» في ذي الحجة سنة (٦٩٤هـ)، وبعد أن اعتنق الإسلام، تبعه جميع الأمراء والجنود المغول، وأسلم بإسلامه أكثر من مائة ألف شخص منهم في فترة وجيزة، ولقب «غازان» نفسه باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن الإسلام

دينًا رسميًا للدولة، وأمر المغول بأن يغيروا ملابسهم التقليدية، ويلبوا العمامة للتدليل على خضوعهم للإسلام، وأمر بهدم الكنائس والمعابد اليهودية والمزدكية والهيكل البوذية، وتحويلها إلى مساجد، وبارتداء اليهود والنصارى ثيابًا تميزهم عن غيرهم من المسلمين، كرد فعل لما لقيه المسلمون من ضروب المهانة والذلة في عهد كل من: «هولاكو» و«أباقا» و«أرغون».

عرف «غازان» بشخصيته القوية، ونشاطه الموفور، وصبره الذي لا ينفد، وبأنه رجل دولة من الطراز

في رجب سنة (٦٩٧هـ)، وعين بدلا منه المؤرخ «رشيد الدين فضل الله» الذي توسم فيه النبوغ والعبقرية والإخلاص، وأشرك معه رجلا يدعى «سعد الدولة» لمساعدته في مهام الوزارة.

- حملات غازان خان على بلاد الشام:

قام «غازان» بثلاث حملات على «بلاد الشام»، كانت الأولى في سنة (٦٩٩هـ)، وانتصر فيها على قواد «الناصر محمد بن قلاوون» بالقرب من منطقة «مرج المروج» شرقي «حمص»، وقد انتشر المغول بعد انتصارهم في الأماكن المجاورة، وخرّبوا البلاد جريًا على عادتهم القديمة، وكأنهم لم يعتنقوا الدين الإسلامي، ثم عين «غازان» واليًا من قبله على البلاد التي استولى عليها، وعاد بعد ذلك إلى «إيران».

وفي سنة (٧٠٠هـ) عاود المغول الكرة على بلاد الشام، واستولوا على مناطق جديدة بها، إلا أنهم لم يتمكنوا من التقدم والاستمرار؛ إذ هطلت عليهم الأمطار بغزارة، واشتدت البرودة، وكثر الوحل، وهلك كثير منهم، ووجد «غازان» نفسه مضطراً إلى العودة إلى



«إيران»، ولكنه عاد بعد ذلك بعامين في سنة (٧٠٢هـ) بحملته الثالثة على «سوريا»، وتحرك إلى مدينة «عانة» على شاطئ «الفرات»، وبرفقتة وزيره المؤرخ «رشيد الدين» ثم عاد أدراجه إلى عاصمته «تبريز» تاركاً جيشه بالشام ليواصل مهمته، ولكن النتيجة جاءت على غير ما كان يتوقع، إذ هُزم جيشه هزيمة منكرة على يد السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» في موقعة «مرج الصفر» بالقرب من «دمشق» في (٢) من رمضان عام (٧٠٢هـ)، فاعتلت صحته، وغلبه المرض، وتآمر عليه الأمراء، وكثرت من حوله الدسائس، ومات في شوال سنة (٧٠٣هـ)، وهو لا يزال في ريعان شبابه.





- إصلاحات غازان :

العلوم الطبية ، وبيت لحفظ كتب القوانين التي أصدرها الإيلخان عرف باسم «بيت القانون»، كما أنشأ مسكنًا للأطفال وآخر للأشراف، وضمت هذه الأبنية بعض الحمامات العامة ، وملجأ واسعًا لليتامى ؛ به مكتب لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه ، وملجأ آخر يتسع لنحو خمسمائة أرملة من النساء اللاتي فقدن عائلتهن، فضلا عن ذلك أنشأ «غازان» الأجران الواسعة المملوءة بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه لكي تزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة

قام «غازان» بإصلاحات كثيرة ومهمة في كثير من الميادين ، وكانت أبرزها إصلاحاته العمرانية، حيث أقام شمالي غرب «تبريز» محلة عُرفت باسم «شام غازان» ، وتفصلها عن مدينة «تبريز» حدائق ومتنزهات كثيرة، وأمر كبار مهندسيه بإقامة بناء عالٍ في ذلك المكان؛ تعلوه قبة كبيرة، ليكون مدفناً له، وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها نحو خمس سنوات ، واشتملت على مسجد وخانقاه ومدرستين (إحدهما للشافعية والأخرى للحنفية)، ومستشفى، ومكتبة ، ومرصد ، ومدرسة لتعليم

٧ - السلطان أوجايتو [٧٠٣هـ] - ٧١٦هـ] :

قدم السلطان «أوجايتو» من «خراسان» التي كان حاكمًا عليها، وتولى العرش خلفًا لأخيه «غازان» في سنة (٧٠٣هـ)، وجعل الوزارة مشاركة بين «رشيد الدين فضل الله الهمداني» و«سعد الدين الساوجي».

- إنشاء مدينة السلطانية :

بدأ إنشاء هذه المدينة في عهد السلطان «غازان» ، وهي تقع على بعد خمسة فراسخ من «زنجان» ، فعمد «أوجايتو» إلى استكمال تشييدها وأمر بالتوسعة في منشآتها العمرانية، فساهم الأمراء والوزراء في بناء بعض أحيائها، وأنشأ الوزير «رشيد الدين فضل الله» محلة بها على نفقته الخاصة ؛ اشتملت على ألف منزل، ومسجد

كبير. وأمر السلطان ببناء قبة كبيرة فوق مقبرته ، وما زالت هذه القبة قائمة حتى اليوم دليلاً على عظمة العمارة في هذا العصر .

تمكن «أوجايتو» في سنة (٧٠٦هـ) من بسط سيطرته على إقليم «جبلان»، وهو الإقليم الذي لم يتمكن المغول من السيطرة عليه حتى هذه السنة لكثرة غاباته، ووعورة مسالكه، وأعاد بناء مرصد «مراغة» الذي بناه «هولاكو» من قبل، وحين بلغ «أوجايتو» الثالثة والثلاثين من عمره اشتد عليه المرض واعتلت صحته، وتوفي في رمضان سنة (٧١٦هـ) .

- سياسة أوجايتو الخارجية :

شق الأمير المملوكي «شمس الدين قرا سنقر» حاكم «دمشق» عصا الطاعة على السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» سلطان المماليك في «مصر» و«الشام» في سنة (٧١٢هـ)، وفر إلى «إيران» لاجئًا، فاستقبله «أوجايتو» أحسن استقبال فشجعه «قرا سنقر» على القيام بحملة على «الشام»، فوافقه وخرج بحملته، وحاصر مدينة «الرحبة» بالعراق، ولكن أهل المدينة استعطفوه، وتدخل الوزير «رشيد الدين» فرفع «أوجايتو» الحصار في رمضان سنة (٧١٢هـ)، وعاد بجيشه إلى عاصمته دون الدخول في معارك مع المماليك، فكانت هذه الحملة آخر حملات الإيلخانيين على المماليك في «مصر» و«الشام».





وكانت هناك أسر فارسية تتوارث منصب الوزارة، مثل أسرة الجوينيين، وأسرة رشيد الدين فضل الله، ولقد كان لهذه الأسر فضل كبير في تحقيق الاستقرار الداخلي، لاطمئنان أفراد الشعب بأن حكامهم المباشرين ليسوا غرباء عنهم ولا خصوماً لهم، كما كان لهذه الأسر فضل آخر في التأثير على ملوك المغول وأمراءهم وجذبهم بالتدرج إلى الاندماج في الحياة الاجتماعية على نمط فارسي إسلامي، فبدأ من يرقب أحوالهم ويتتبع تفصيلات حياتهم أنهم كانوا وكأنهم أسرة من الأسر الإيرانية الحاكمة.

وعلى الرغم من ذلك ظل المغول ينظرون إلى الفرس على أنهم خصوم وأعداء لهم حتى دخل المغول في الإسلام أفواجاً في عهد «السلطان غازان»، فتغيرت عندئذ نظرتهم، ولم يعودوا يرون أهل البلاد الأصليين غرباء عنهم وخصوماً لهم. ولاشك أن القوانين والإصلاحات الجديدة التي وضعها غازان أدت إلى تحسن الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في إيران والعراق، وصاغت صياغة جديدة، نالت قبول الناس جميعاً. وظل هذا التحسن مستمراً إلى نهاية عهد السلطان أبي سعيد بهادر،

وأخذت هذه الدويلات الخمس تتنازع فيما بينها، ودخلت كل منها في حروب طاحنة مع غيرها، وظلت على ذلك حتى خرج عليها الأمير «تيمورلنك» وتمكن من القضاء عليها نهائياً بحملاته المتعددة التي بدأها في سنة (٧٨٨هـ) على «إيران» و«العراق».

مظاهر الحضارة

- الإدارة ونظم الحكم :

استعان المغول بالموظفين الفرس في إدارة شئون الدولة، إذ لم يكن بوسع هؤلاء المغول الأميين وحدهم إدارة شئون هذه البلاد المترامية الأطراف، وجمع الضرائب والأموال، وإقرار الأمن.

٨ - السلطان أبو سعيد بهادر [٧١٦ - ٧٣٦هـ]

تولى «أبو سعيد» حكم البلاد بعد وفاة السلطان «أولجايتو»، وكان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره، فاضطربت أحوال البلاد وتعددت ثورات الأمراء المغول في مناطق متفرقة ضده، غير أن «أبا سعيد» استعان عليهم بقائد جيشه الأمير «جويان»، ففضى عليهم، وأعاد إلى البلاد استقرارها وهدوءها.

- الوزارة :

شهد منصب الوزارة تغييرات كثيرة، حيث أبقى السلطان «أبو سعيد» على «رشيد الدين الهمداني» و«تاج الدين التبريزي» في منصب الوزارة، ولكن «تاج الدين» الذي كان يجيد المعاملات التجارية والمالية مع كونه أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، أراد أن ينفرد بهذا المنصب، وعمد إلى الدهاء والوقية لدى السلطان للتخلص من «رشيد الدين» ونجح في ذلك، وأمر السلطان بقتل «رشيد الدين» في سنة (٧١٨هـ)، فانفرد «تاج الدين عليشاه» بالوزارة حتى وفاته في أوائل سنة (٧٢٤هـ)، فوليها من بعده «دمشق خواجه» ابن الأمير «جويان»، وصارت أمور الجيش والشعب في أيدي الأمير وابنه وعلا شأنهما، وتجاهل السلطان في معظم الأمور، فغضب السلطان من ذلك

وأمر بقتلهم، ثم نصب «غيث الدين ابن رشيد الدين فضل الله» في هذا المنصب، لشعوره بالندم على قتل أبيه فضلاً عن أن «غيث الدين» كان أصلح الناس لهذا المنصب في ذلك الوقت؛ حيث إنه كان واسع الأفق، ومطلعاً على العلوم العقلية والنقلية، فأحسن إدارة شئون الدولة وتوخى العدل، وعمل على رعاية مصالح الناس، وظل في منصبه حتى وفاة «أبي سعيد» في (١٣) من ربيع الأول سنة (٧٣٦هـ).

انهيار دولة

الإيلخانيين المغول

تعرضت «الدولة الإيلخانية» -عقب وفاة السلطان «أبي سعيد بهادر»- للضعف والزوال، حيث كان السلاطين الذين اعتلوا عرش هذه الدولة بعد «أبي سعيد» ضعاف الشخصية، كما كانوا ألعوبة في أيدي الأمراء المغول وكبار رجال الدولة، وظل هذا حال هذه الدولة حتى وفاة «أنوشيروان» آخر السلاطين الإيلخانيين في سنة (٧٥٦هـ)، فتقاسم خمسة من كبار الأمراء المغول أملاك هذه الدولة، وكون كل منهم دولة صغيرة مستقلة، وهذه الدول هي:

- دولة آل جلائر (الجلاتريون).
- دولة الجويانيين.
- دولة آل المظفر.
- دولة السريداريون.
- دولة آل كرت.



آخر سلاطين الإيلخانيين العظام (٧٣٦هـ) ، فعادت الشؤون الإدارية والاقتصادية والاجتماعية إلى الاضطراب من جديد .

وأيا ما كان الأمر ، فقد نهجت الدولة الإيلخانية في إيران والعراق نهج الإمبراطورية المغولية الكبرى التي اتخذت من قراقورم عاصمة لها ، فحذت في تشكيلاتها الإدارية والسياسية حذوها وسارت على نسقها .

لقد كان الأمراء الملكيون (شاهزاده) والقادة العسكريون (نوين) والأمراء المغول تابعين تبعية مباشرة للإيلخان ، أو السلطان فيما بعد . وكان الإيلخان يخصص لهم أراضى واسعة ومدناً بأكملها كإقطاع لهم ، ويتولون جمع خراج هذه الإقطاعات ويخصون به أنفسهم .

كان الجهاز الحاكم في الدولة الإيلخانية ينقسم إلى أربعة أقسام تتفاوت فيما بينها بتفاوت الجنسية، واللغة ، والدين ، والمستوى الاجتماعي ، على النحو التالي :

١ - قادة المغول .

٢ - الموظفون المدنيون ، وكان معظمهم من الفرس .

٣ - رجال الدين المسلمون . ولقد كان رجال الدين من المسلمين والمسيحيين في بلاد القوقاز وآسيا الصغرى خاصة في مرتبة واحدة .

٤ - الأعيان المحليون في أقاليم فارس والعراق . وكان اهتمام الدولة منصبا أساساً على جمع أكبر قدر من الأموال والضرائب من أفراد الشعب .

ويرأس الإدارة المدنية في الدولة «صاحب الديوان» أو رئيس الوزراء . ويعهد إليه الإشراف على شئون الخزانة ، والدخل والخرج ، والشئون المكتبية والإدارية وتعيين الموظفين وعزلهم . وبالإضافة إلى الديوان العالى للإدارة المركزية ، كانت هناك دواوين أخرى مثل «ديوان إينجو» الذى كان يتولى إدارة الأملاك المنقولة - وغير المنقولة - للإيلخان نفسه ، ولأقاربه من الدرجة الأولى ، وهذا الديوان يشبه إلى حد بعيد «ديوان الخاص» الذى عرف في مصر في عهد المماليك .

وأبقى الإيلخانيون على منصب قاضى القضاة ، وكان شاغله يقوم بالفصل بين الخصوم ، والحكم بين الناس ، وتولية القضاة ومراقبتهم ، وكذلك مراقبة أحوال الناس ومعيشتهم وصنائعهم ، وله الحق فى الأخذ على يد الخارج منهم .

وكانت هناك مناصب : الصدر، والناظر ، والشحنة ، وهى وظائف إدارية تشرف على الإدارة المحلية ، وجمع الأموال وصرفها ، والإشراف على نظام الأمن ، ومراقبة ولاية الأقاليم التابعة للدولة الإيلخانية .

* الوضع الاقتصادى :

نهضت الزراعة فى الدولة الإيلخانية لخصوبة الأرض ، ووفرة مياه الأنهار والأمطار ، وتميز الإيلخانيون بنظام الإقطاع وجعلوه نوعين : أولهما الإقطاع المملوك ، وهو أن يمنح الإيلخان الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة ، مساحات من الأرض الزراعية ، ويجعلها ملكاً خاصاً بهم ، وثانيهما : الإقطاع المستغل والمقصود به استغلال الأرض فى الزراعة والاستفادة منها دون تملكها .

واعتمد اقتصاد الإيلخانيين على الثروة الزراعية الآتية من مناطق : ما بين النهرين ، والبصرة ، والفرات (بين الأنبار وعانة) ، ودجيل ، ومنطقة على نهر دجلة ، وخراسان . كما اعتمد على نظام الإقطاع فى الإنفاق على التجهيزات العسكرية والجيش .

وتعددت الضرائب فى نظام دولة الإيلخانات فكانت هناك : ضريبة الأرض ، وضريبة الرؤوس ، وضريبة البيوت والعقارات ، وضريبة الأسواق ، وضريبة التمغات ، وضريبة المراعى ، وضريبة المساعدات والقروض . وتعتمد الجباة إرهاب الناس فى جمع الضرائب ، وحصلوا منهم على أموال كثيرة لم تكن مفروضة عليهم ، وتآمر الحكام والجباة على الشعب ، وظهر الفساد بصورة جلية فى هذا الشأن .

ولعل مشكلة العملة الورقية (الچاو) التى فرضها السلطان «كيخاتوخان» على الناس فى سنة (٦٩٣هـ = ١٢٩٤م) ، كانت من أبرز المشاكل الاقتصادية التى اعترضت سبيل الدولة الإيلخانية ، إذ رفض الناس التعامل بهذه العملة الورقية التى أجبرهم السلطان على تداولها ، واضطربت أحوال الشعب ، وأغلق التجار محالهم ، وامتنعوا عن البيع والشراء ، فانتهى الأمر بإلغاء هذه العملة .

وعمد الإيلخانيون إلى إصلاح ما أفسدته وخربته الحروب ، وأعادوا فتح الأسواق ، وأكثروا منها ، وازدهرت صناعة المنسوجات ، وصناعة اللؤلؤ .

ونشطت التجارة وأصبحت العراق وإيران من أشهر مراكز التجارة فى ذلك الوقت ، وقامت



متنمة لعلماء الفلك من مخطوط شاهنشاه نامه

علاقات تجارية واسعة بين الإيلخانيين والصينيين والتركستانيين ، وصُدرت المصنوعات الحريرية، واللؤلؤ إلى أوروبا عن طريق الهند . وكانت «تبريز» مركز رواج وازدهار التجارة لوجود عدة طرق برية بها ، تمر منها القوافل .

وعلى الرغم من الطبيعة البدوية التى غلبت على المغول الأول ، وعدم اكتراثهم بالمنشآت العمرانية وتفضيلهم للعيش فى الخيام ، فإن هولاء - على سبيل المثال - شرع

بعد استقراره فى إيران فى إنشاء المباني الكبيرة والقصور الفخمة فى آذربيجان و«تخت سليمان» ، كما بنى مرصداً فى مراغة سنة (٦٥٨هـ) ، وعهد إلى العالم الفيلسوف «نصير الدين الطوسى» بالإشراف على بنائه وإدارته ، وقد تم تأسيس مكتبة كبرى إلى جوار هذا المرصد ، ولم يكن يعمل فيه الفلكيون العرب والإيرانيون فحسب بل عمل فيه أيضاً المنجمون الصينيون والهنود .

* الوضع الديني :

تدهور الوضع الديني منذ البداية في الدولة الإيلخانية، حيث نشبت الصراعات المذهبية والدينية بين أهل السنة بالعراق، وأصحاب المذهب الشيعي بالدولة الإسماعيلية بإيران. وما لاشك فيه أن فتنة الكرخ التي حدثت بالعراق، وما ترتب عليها من فوزى أمنية كانت سبباً رئيساً في الاجتياح المغولي لهذه البلاد.

وقد ظل الصراع محتدماً بين السنة والشيعة في ظل حكم دولة الإيلخانيين، وتبوأ المسيحيون مكاناً بارزاً على الرغم من الاختلافات المذهبية التي كانت قائمة بين أتباعها، واستغل البوذيون كل هذه الخلافات والصراعات وتبوءوا مكانة عالية. ومع ذلك كان الإيلخانيون ينظرون إلى الجميع نظرة واحدة مؤداها أنهم رعية، وعليهم السمع والطاعة.



ولقد ظل هذا الوضع قائماً حتى تولى السلطان «محمود غازان» الحكم، فأعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة الإيلخانية، ومن ثم اقتصرت وظائف الدولة على المسلمين.

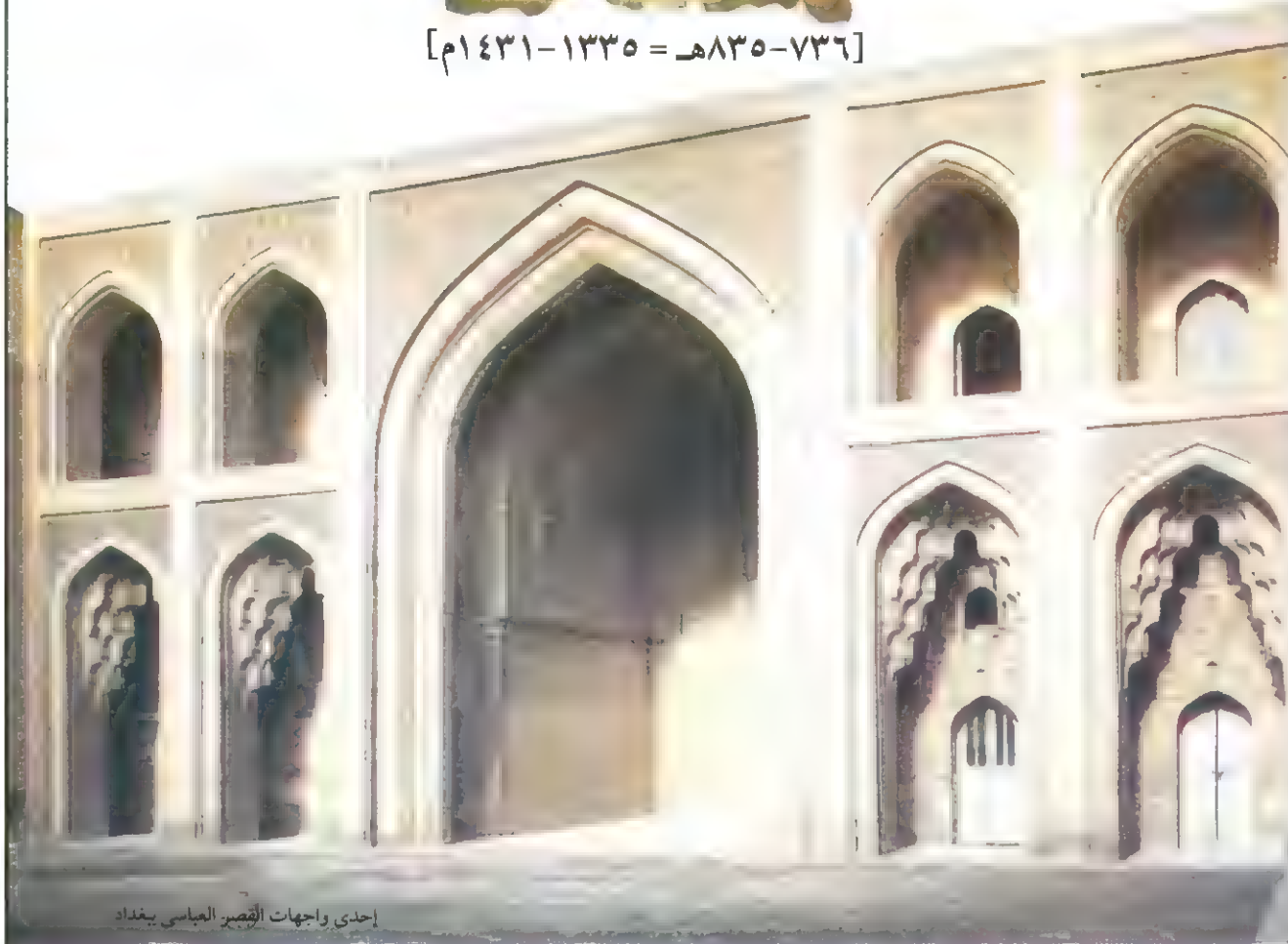
- وبعد :

فقد تكونت «الدولة الإيلخانية» من قبائل وطوائف متعددة، لم يكن بينها رابط ثقافي أو وطني، ولم تكن تجمعها تحت راية واحدة إلا قوة الإيلخانيين الأقوياء، فلما مات السلطان «أبوسعيد» آخر السلاطين العظماء ولم يعقب ولداً يخلفه على العرش، تددت القوة المركزية للدولة، وانتقلت المبادرة إلى أيدي الأمراء المغول الذين غلب عليهم طابع البداوة، فاختلف التماسك، وتمزقت البلاد، وضاع الهدف الذي من أجله أقيمت هذه الدولة، وطمغت المصلحة الشخصية على المصالح العامة، ثم ما لبثت الدويلات التي أقامها الأمراء على أنقاض الدولة الأم أن ضاعت هي الأخرى على يد «تيمورلنك»، فأسرع جانب من المغول الذين كانوا يقيمون في «إيران» إلى الاندماج في العناصر التركية التي تعيش في تلك البلاد، بينما اندمج جانب آخر منهم في الإيرانيين الفرس الذين يعيشون بينهم، وذابوا فيهم، وهكذا سقطت «الدولة الإيلخانية» على أيدي أمرائها.

الدولة الجلائرية

في العراق وأذربيجان

[٧٣٦-٨٣٥هـ = ١٣٣٥-١٤٣١م]



إحدى واجهات القصر العباسي ببغداد

- النشأة والتكوين :

ضمت «الدولة الإيلخانية» التي أسسها «هولاكو» في عام (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) شعباً متعددة، وأقاليم كثيرة، شملت «العراق» و«إيران»، واستمرت في حكمها حتى عام (٧١٦-٧٣٦هـ = ١٣١٦-١٣٣٥م)، ثم تصارع الأمراء على الانفراد والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم من أجزاء هذه الدولة، فتفككت وانقسمت إلى دويلات، وبات الحكم فيها لأسر بعينها، مثل : أسرة

«آل جلائر» التي استقلت بحكم «العراق» بعد وفاة السلطان «أبو سعيد بهادرخان». كان «آل جلائر» من القبائل المغولية، وبعد «تاج الدين شيخ حسن بزرك بن حسين» أول حكام «آل جلائر» ومؤسس دولتهم «الجلائرية»، وثالث من تولى الحكم في «الدولة الإيلخانية». وقد امتد سلطانه إلى «العراق»، واتخذ «بغداد» عاصمة له، وأعلن نفسه ملكاً عليها، فظهرت بذلك الدولة «الجلائرية» إلى حيز الوجود.

- الوضع الداخلي :

شهدت اللبئات الأولى لقيام «الدولة الجلائرية» عدة حروب بين الأمراء المغول بهدف الوصول إلى الحكم، إلا أن «حسن الجلائري» تمكن من الاستقلال بالعراق واستطاع أن يوحد الصفوف لتأسيس دولته الوليدة، ومع ذلك لم تتوقف الصراعات والحروب مع بقايا الإيلخانيين، إلى أن تمكن «الشيخ حسن الجلائري» من طردهم إلى خارج حدود دولته - «العراق» - في عام (٧٤٨هـ = ١٣٤٧م).

كان «الشيخ حسن الجلائري» سياسياً حكيماً، وأراد أن يضمن لدولته قوتها ووحدتها، فلم يعلن نفسه خائناً أو سلطاناً؛ بل أعلن ولاءه للسلطان المملوكي في «مصر» ليكون سنده الذي يحتمى به إذا ما فكر المغول في غزوه، خاصة وأن دولته قريبة ومتاخمة للإمارات والممالك المغولية فساعده هذا التصرف على استقرار بلاده، وشجعه على الاستيلاء على «لورستان»، و«الموصل»، و«تستر»، وبسط نفوذه على غيرها، فاتسعت رقعة بلاده، وامتد نفوذ حكمه، ثم مات في عام (٧٥٧هـ = ١٣٥٦م)، وخلفه ابنه «الشيخ أويس بن حسن الجلائري»، فبلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها، إذ ضم إليها «أذربيجان»، و«آران»، و«موقان»، واتخذ من «تبريز» عاصمة لبلاده، وانتقل نشاط الدولة السياسي ومركزها من «العراق» إلى «أذربيجان»، فأدى ذلك إلى قيام حركات التمرد في «بغداد» على الجلائريين، وكانت حركة «مرجان» نائب «الشيخ أويس» على «بغداد» من أشهر هذه الحركات، وكان «مرجان» طواشياً^(٥) للشيخ أويس.

لقد أخطأ «الشيخ أويس» في حساباته عندما ابتعد عن «العراق» واتخذ له عاصمة في «إيران»، فضلاً عن تقريبه الفرس دون

العرب، فكانت النتيجة انضمام العرب بمختلف طوائفهم إلى «مرجان» وحركته، وحُذف اسم «الشيخ أويس» من الخطبة؛ رمز السيادة في الدولة، وخطب للسلطان المملوكي في «مصر».

خرج «الشيخ أويس» من «تبريز» إلى «بغداد» في سنة (٧٦٥هـ = ١٣٦٣م)، واستطاع وزيره أن يستميل أعوان «الخواجة مرجان» إلى صفه، فانفضوا من حول «مرجان» وفشلت حركته، ودخل «الشيخ أويس» «بغداد» ثم جعل «شاه خازن» نائباً له عليها. ولكن «مرجان» لم يأس من المحاولة، وعاد مرة ثانية إلى حكم «بغداد» عقب وفاة «شاه خازن»، مما يؤكد حب أهل «العراق» لمرجان ومكانته عندهم، فاضطر «الشيخ أويس» إلى الصفح عنه، ثم أرسل ابنه «الشيخ علي» ليحكم «العراق».

توفي «الشيخ أويس» عام (٧٧٦هـ = ١٣٧٣م)، وخلفه في الحكم ابنه «جلال الدين حسين بن أويس» (٧٧٦ - ٧٨٤هـ = ١٣٧٣ - ١٣٨٢م)، فضاعت هيبة الدولة في عهده، وبدأت في التدهور والانحيار؛ حيث اهتم بملذاته ومصالحه الشخصية على حساب أمور الدولة والرعية، وزادت الأمور اضطراباً في عهد أخيه «أحمد بن أويس» الذي خلفه في الحكم (٧٨٤

- ٨١٣هـ = ١٣٨٢ - ١٤١٠م)، إذ تمكن «تيمورلنك» من إسقاطه عن عرشه عدة مرات، ثم دخل «بغداد» في عام (٧٩٥هـ = ١٣٩٣م)، ففر «أحمد بن أويس» إلى «مصر» مستنجداً بالسلطان المملوكي «برقوق»، وتمكن «الشيخ أحمد» -أخيراً- من العودة إلى «بغداد» في عام (٨٠٤هـ = ١٤٠١م)، وتمكن من استعادتها في عام (٨٠٧هـ = ١٤٠٤م)، بعد أن خرجت عدة مرات من حكم «آل جلائر» إلى حكم التيموريين، ثم استعاد «تبريز» في عام (٨٠٩هـ = ١٤٠٦م)، ولم يلبث أن فقدها ثانية في العام نفسه على يد حفيد «تيمورلنك».

وفى عام (٨١٣هـ = ١٤١٠م)، اختلف «أحمد بن أويس» مع زعيم قبيلة «قراقيونلو»، وحدث صدام بينهما، فقتل «الشيخ أحمد»، وتمكن زعيم «قراقيونلو» من انتزاع «تبريز» وما والاها من الجلائريين، ثم أسس دولة له في «أذربيجان». تولى الحكم بعد «أحمد بن أويس» عدد من السلاطين، وصلت الدولة في عهدهم إلى أقصى مراحل الضعف حتى انتهت بموت «حسين بن علاء الدولة» آخر السلاطين الجلائريين سنة (٨٣٥هـ)، وسلاطين هذه الفترة هم:

- «شاه ولد» (٨١٣ - ٨١٤هـ).

- «محمود بن شاه ولد» (٨١٤ - ٨١٨هـ).

- «أويس بن شاه ولد» (٨١٨ - ٨٢٤هـ).

- «محمد بن شاه ولد» (٨٢٤ - ٨٢٧هـ).

- «حسين بن علاء الدولة» (٨٢٧ - ٨٣٥هـ).

* العلاقات الخارجية :

اتسمت علاقة الجلائريين بالعالم الخارجي بالعداء والصراعات؛ لأن دولتهم قامت على أنقاض «الدولة الإيلخانية»، فنشب الصراع بينهم وبين «الدولة الجوبانية» نتيجة استجابة السلطان المملوكي للشيخ «حسن الجلائري» حين طلب منه الحماية، غير أن مقتل «حسن

الجوباني» على يد زوجته «عزت الملك» في عام (٧٤٤هـ = ١٣٤٤م)، قد أراح «حسن الجلائري» من نزاعات وصراعات كثيرة كانت ستحدث حول أملاك الجلائريين الشرقية. ثم جاءت نهاية «الجوبانيين» على يد «القبحاق»، فوضعت النهاية للصراع الجلائري الجوباني.

ولم تكن علاقة الجلائريين بالدولة المظفرية بأفضل حال من سواها، فقامت بينهما المنازعات، إذ قدم المظفريون المساعدات إلى المناهضين للحكم الجلائري، وإلى المتمردين عليه، ثم أطاح التيموريون في النهاية بالجلائريين والمظفريين معاً.

دخلت علاقة «الدولة الجلائرية» مع «الدولة المملوكية» بمصر في دور التبعية، بهدف الاستفادة من الممالك في حماية دولتهم ومساعدتها ضد أعدائها، خاصة الجوبانيين والتيموريين. وقد ساعد السلطان المملوكي «برقوق» السلطان الجلائري «أحمد بن أويس» في استعادة «بغداد» من أيدي التيموريين.

كانت علاقة الجلائريين الخارجية «بقراقيونلو» علاقة صداقة - في بداية الأمر - ثم ما لبثت أن تحولت إلى عداوة وشقاق، واستولت هذه القبيلة على أملاك «الدولة الجلائرية» في «أذربيجان» ثم أقامت بها دولتها المستقلة.



* مظاهر الحضارة في الدولة الجلائرية :

تمتعت «الدولة الجلائرية» باستقلالها في عهد «الشيخ حسن الجلائري» الذي أدت سياسة حكمه إلى انتعاش اقتصاد البلاد، وبناء حضارة زاهرة، وتشيد المدارس والمكتبات وأماكن العلاج، فتردد طلاب العلم على «بغداد» من كل مكان؛ طلباً للعلم والمعرفة، فأعاد لبغداد عهدها القديم المشرق، واعتمد على العرب والترك في الجيش، فقل تأثير الفرس على المجتمع العراقي، وبات «آل فضل» العرب ذوي مكانة خاصة في هذه الدولة. ولكن ذلك لم يدم طويلاً؛ إذ تولى «الشيخ أويس

ابن حسن» عرش «الدولة الجلائرية» واعتمد فيها على العنصر الفارسي، وأساء إلى العرب، فتقلص نفوذ العرب ونشاطهم في الدولة، وازداد الأمر سوءاً حينما اتخذ «الشيخ أويس» «تبريز» عاصمة لبلاده بدلاً من «بغداد»، وجعل اللغة الفارسية لغة بلاده الرسمية؛ فازداد نفوذ الفرس، واشتعلت الثورات في «العراق»، وطمع المظفريون في فارس، فأحدثت الأخطار بالدولة الجلائرية من كل جانب فغزاها التيموريون، فأفقدوا ذلك القدرة على مواصلة الإصلاح الاقتصادي، وأهملت المنشآت الخاصة بالزراعة والري، وأصبح شغل الحكام الجلائريين الشاغل هو الحفاظ على وجودهم في الحكم، ونشبت بينهم الصراعات الكثيرة التي أطاحت بهم جميعاً في النهاية.

كما ساعدت الفيضانات والأوبئة التي تعرضت لها هذه الدولة على انهيار اقتصادها، وتدهور الأحوال فيها، واضطر الحكام إلى فرض الضرائب لملاحقة المجهود العسكري، فضجر الناس من ذلك، وانتكست تجارتهم بسبب الضرائب، وأصبحت الصناعة بالخمول والكساد أيضاً، ولم تبق إلا بعض الصناعات القليلة مثل صناعة الحرير، وصناعة الأسلحة، وبات هم الحكام الحفاظ على العرش، وضحوا في سبيل تحقيق ذلك بكل غالٍ ونفيس.

المظفريون في فارس وكرمان وكرجستان

الدولة المظفرية

[٧١٣-٧٩٥هـ = ١٣١٣-١٣٩٣م]

* النشأة والتكوين:

ينسب «آل مظفر» إلى الأمير «مبارز الدين محمد» ابن الأمير «شرف الدين بن منصور بن غياث الدين حاجي الخراساني»، وقد تولى الأمير «شرف الدين» عدة مناصب في عهد الإيلخانيين.



* الوضع الداخلي:

ليضفى الشرعية على حكمه، وظل يسعى إلى تحقيق هدفه حتى بات الخليفة العوبة في يده.

اعترض «آل إينجو» بزعامة «الشيخ أبي إسحاق» طريق «آل مبارز» في تحقيق حلمهم، ونشبت الخلافات والصراعات بينهما، وظلت العلاقة بين الطرفين سيئة حتى قتل المظفريون «الشيخ أبا إسحاق» عقب إحدى المعارك التي دارت بينهما في عام (٧٥٨هـ =

استقل الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بإقليم «فارس» عقب سقوط الحكم الإيلخاني، ثم استولى على «كرمان» في سنة (٧٤١هـ = ١٣٤٠م)، وطمح في تكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، فضم كثيراً من المدن الإيرانية إلى دولته، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي «المعتضد بالله» واتخذ لنفسه لقب «ناصر أمير المؤمنين»؛

فولاه السلطان «أولجايتو» مدينة «ميب»^(٦)، ثم توفي «شرف الدين» بعد أن قضى على المتمردين في منطقة «شبانكاره»، فاتخذ السلطان «أبو سعيد بهادرخان» ابنه «مبارز الدين محمد» ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره مكان أبيه، وولاه مناصبه في عام (٧١٧هـ = ١٣١٧م)، ولذا يعد الأمير «مبارز الدين» أول حكام المظفريين.



١٣٥٦م)، واستولى «شاه شجاع» ابن الأمير «مبارز الدين» على «شيراز»، فانتقل إليها الأمير «مبارز» وأقام بها وأرسل ابنه «شاه شجاع» إلى حكم «كرمان».

وفي عام (٧٥٨هـ) فتح الأمير «مبارز الدين» منطقة «تبريز»، ثم لما علم بقدوم الشيخ إدريس الجلائري إليها، غادرها إلى «شيراز»، وهناك اصطدم بولديه «شاه شجاع»، و«شاه محمود»، اللذين تحالفا مع «شاه سلطان» أحد الناقمين على أبيهما، فقبضوا عليه، وأمر ابنه «شاه شجاع» بسمل عينيه، ثم حبسوه في إحدى القلاع، والتمس الأب عطف ولديه، وطلب منهما الصلح، فعفوا عنه، وحكما البلاد نيابة عنه، وضربا السكة باسمه، وظل الوضع على ذلك فترة، ثم أرسلاه للإقامة بقلعة «بم» بكرمان، ولكن الأمير «مبارز الدين» كان قد اشتد به المرض ومات في الطريق قبل أن يصل إلى هذه القلعة في عام (٧٦٥هـ = ١٣٦٤م).

وظل أبناء «مبارز الدين» يحكمون من بعده «كرمان» و«فارس» و«کردستان»، فحكم «جلال الدين شاه شجاع» في حياة أبيه في سنة (٧٥٩هـ = ١٣٥٧م)، وظل في الحكم حتى سنة

(٧٨٦هـ = ١٣٨٤م)، وقضى فترة حكمه في مطاردة المارقين والعصاة والخارجين على الدولة، ثم تولى بعده ابنه «مجاهد الدين زين الدين» (٧٨٦-٧٨٩هـ = ١٣٨٤-١٣٨٧م)، إلى أن عزله الأمير «تيمور كوركان»، فخلفه «شاه يحيى» في «يزد»، و«سلطان أحمد» في «كرمان».

وكان «شاه منصور» آخر حكام دولة «آل المظفر» في «أصفهان»، وسقطت «الدولة المظفرية» في عام (٧٩٥هـ = ١٣٩٣م). وقد اشتهر المظفريون بحبهم للعلم والثقافة طيلة اثنتي عشرة سنة هي عمر دولتهم من النشأة حتى السقوط.

* العلاقات الخارجية:

عانت «الدولة المظفرية» كثيراً من الصعاب من أجل الاحتفاظ بالحكم، فدار صراع بينها وبين «آل إينجو» بزعمامة الشيخ «أبي إسحاق»، ودخلت حروب عدة مع «الدولة الجلائرية»، وكذلك مع «الدولة التيمورية» التي اجتاحت ما اعترض سبيلها من الدول والحكام.

ولم تستطع دولة «آل المظفر» الصمود أمام تسلط «تيمور كوركان» الذي قسم أملاكها بحجة الوصاية التي منحه إياها الأمير «مجاهد الدين زين العابدين» لرعاية أولاده من بعده، فوضع «تيمور» النهاية لهذه الدولة في عام (٧٩٥هـ = ١٣٩٣م) بعد أن فرق وحدتها، وشتت حكمها، وقسم أرضها، ثم عمد بعد ذلك إلى إسقاطها.

* مظاهر الحضارة في الدولة المظفرية:

تميز عهد الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بالنشاط الحضاري، والازدهار الفكري والثقافي، بفضل تشجيعه للعلماء والفقهاء والناخبين، فتعهد علماء «شيراز» بالرعاية، وبنى في «كرمان» مسجداً كبيراً أوقف عليه الأملاك لرعايته، وضرب السكة في عهده ونقش عليها اسم الخليفة العباسي رمز المسلمين، وتذكر المصادر الفارسية أن «مبارز الدين» كان ضيق الصدر، ويعاقب المخطئ بنفسه؛ حتى أطلق عليه: «الملك المحتسب»، وكان شاه شجاع محبا للشعر والشعراء، فازدهر الشعر في عصره، ونبغ عدد كبير من الشعراء منهم: «الشاعر الحافظ الشيرازي»، و«العماد الفقيه الكرمانى».

وعلى الرغم من أن «آل المظفر» قد أحبوا العلم، وساعدوا العلماء، ونشروا الثقافة، فإنهم كانوا يتصفون بالقسوة، ويغلب عليهم العنف في تعاملهم مع الرعية، وأيضاً فيما بينهم، وليس أدل على ذلك مما حدث من ابني الأمير «مبارز الدين» مع أبيهما، ليمنعوه من الحكم، ولعل هذه الصفات كانت السبب الرئيسي في زوال ملكهم.



ملوك كرت

افه هراة وبلخ وغزنة وسرخس ونيسابور

[٦٤٣ - ٧٩١ هـ = ١٢٤٥ - ١٣٨٩ م]

* النشأة والتكوين :

استقل ملوك «كرت» ببلادهم استقلالا محدوداً تحت لواء الإيلخانات في «إيران» ، وإن استمروا في الحكم فترة بعد سقوط «الدولة الإيلخانية» وقد استقر ملوك «آل كرت» في «هراة» . و«بلخ» ، و«غزنة» ، و«سرخس» ، و«نيسابور» ، ولم يصلوا إلى ما وصلت إليه الأسر المغولية الأخرى من أهمية في تاريخ المشرق الإسلامي؛ إذ حكموا الجزء الشرقي لإيران من منتصف القرن السابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري ، وأزال ملكهم

الأمير «تيمور كوركان» مثلما أزال ملك الأسر المغولية الأخرى .

* الوضع الداخلي :

كان «شمس الدين الأول محمد» ، أول ملوك «آل كرت» ، وهو ابن ابنة «ركن الدين بن تاج» الذي تزوج ابنة السلطان «غياث الدين محمود الغوري» ، الذي عينه حاكماً على قلعة «خنسار» (تقع بين هراة والغور) والتي آل أمرها -فيما بعد- إلى

الملك «شمس الدين» . عندما رحف المغول على العالم الإسلامي رأى الجد «ركن الدين بن تاج» الدخول تحت لوائهم ، ليضمن سلامة ملكه ، فتركه المغول ، ويعث بحفيده «شمس الدين كرت» إليهم ليكون في خدمتهم ، تعبيراً عن الطاعة والولاء .



حكم «شمس الدين كرت» مناطق كثيرة، منها: «هراة» ، و«بلخ» ، و«غزنة» ، و«سرخس» ، و«نيسابور» ، ووصل بملكه إلى ضفاف «سيحون» ، و«سيستان» ، و«كابل» حتى «نهر السند» ، وتمكن من الاستقلال بالحكم في سنة (٦٤٨ هـ) . ومن المؤكد أن «شمس الدين» لعب دوراً كبيراً في حملة «هولاكو خان» على بلاد طائفة «الإسماعيلية» ، إذ كان أول المشاركين فيها إظهاراً لولائه وطاعته للمغول ، وكان له الفضل في تسليم «ناصر الدين محتشم» قلعة قهستان إلى المغول .

لم تسر سياسة «شمس الدين» على نهج واحد في علاقته بالمغول ، إذ انحاز إلى «براق خان» الجغتائي في هجومه على «آباقا خان» ابن «هولاكو» للاستيلاء على «خراسان» التابعة للدولة الإيلخانية ، وذلك بعد وفاة «هولاكو» ، وتولى ابنه «آباقا خان» الحكم خلفاً له ، فغضب «آباقا خان» على «شمس الدين» لموقفه ، وخشى «شمس الدين» على حياته من غضب «آباقا خان» وانتقامه .

شعر «براق خان» بقرب نهاية دولته (الدولة الجغتائية) ، فعرض على «شمس الدين كرت» أن يعرف له أسماء الأغنياء في «خراسان» -طمعاً في مالهم- مقابل أن يفوضه في أملاك «الدولة

الإيلخانية» ، فأحس «شمس الدين» بذكائه قرب زوال ملك الجغتائيين ، خاصة أن جيشهم بدت عليه أمارات القسوة والتجبر ، فعاد إلى «هراة» ، واعتصم بقلعة «خنسار» ، وانتظر ما ستسفر عنه الأحداث ، ولكنه لم يلبث طويلاً وتمكن من النجاة بشفاعة «شمس الدين الجويني» صاحب الديوان^(٧) له عند «آباقا خان» الذي عفا عنه ، ومات «شمس الدين كرت» في «تبريز» مسموماً في عام ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م) ، فولّى «آباقا خان» «ركن الدين» ابن «شمس الدين» حكم «هراة» (٦٧٧-٦٨٢ هـ = ١٢٧٨ - ١٢٨٣ م) .

واتخذ هذا الابن لقب أبيه وعرف باسم «ركن الدين بن شمس الدين الأصغر» .

فلما توفى الإيلخان «آباقا خان» خشى ركن الدين على حياته ، واعتصم بقلعة «خنسار» الحصينة حتى وفاته سنة (٧٠٥ هـ = ١٣٠٥ م) ، ثم تولى ابنه «فخر الدين» مكانه من قبل «غازان خان» سنة (٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م) ، وشغل عهده بالخلاف مع «غازان» ، حتى توفى سنة (٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م) ، فعين «أولجايتو» مكانه أخاه «غياث الدين» ، وظل في الحكم حتى سنة (٧٢٩ هـ = ١٣٢٨ م) ، فخلفه بالتتابع ولداه «شمس الدين الثاني» الذي مات سنة (٧٣٠ هـ = ١٣٢٩ م) ، و«الملك حافظ» الذي قتل

سنة (٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) ، ثم جاء من بعدهما الأخ الثالث «معز الدين حسين» ، وكان من أبرز حكام «بنى كرت» ، فقد قرأت الخطبة باسمه ، وأهداه «سعد الدين التفتازاني» كتابه المشهور في البلاغة باسم «المطول» وقد توفى «معز الدين حسين» سنة (٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) ، وحل مكانه ابنه «غياث الدين بير علي» الذي دعاه «تيمورلنك» للاجتماع به ، فلما لم يلب دعوة ، قاد بنفسه جيشاً تمكن من الاستيلاء على هراة سنة (٧٨٣ هـ = ١٣٨١ م) ، وأسـر «غياث الدين» وابنه «بير محمد» وأخاه الملك «محمد» وإلى «سرخس» وأركان حكومته ، وساقهم إلى «سمرقند» ، ثم أعدمهم في أواخر سنة (٧٨٤ هـ) وبذلك انقرضت أسرة ملوك كرت .

- العلاقات الخارجية:

أتاح اتصال ملوك «كرت» بالغوريين فرصة الوصول إلى الحكم ، فلما غزا المغول البلاد الإسلامية انضوى «ركن الدين» تحت لوائهم ، وعمل على مسالمتهم ليأمن شرمهم على نفسه وعلى ملك «آل كرت» في «هراة» وغيرها . ثم جاء «شمس الدين كرت» ومضى على الدرب نفسه في موالة المغول ، وانضم إليهم في حملة «هولاكو خان» على بلاد «الإسماعيلية» ، وكان له دوره البارز في استسلام «ناصر الدين محتشم» ، وتسليمه لقلعة



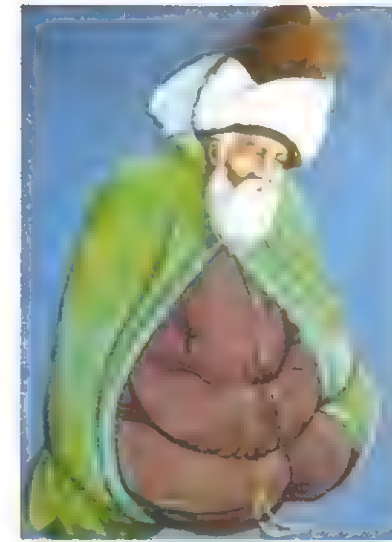
العذب، وكانت تقع في أطراف «خراسان» وتربطها بالهند، أما «سرخس» فتقع بين «مرو» و«نيسابور» وبها خيرات كثيرة، واشتهرت «نيسابور» (إحدى مدن خراسان) بالفواكه والثمار، والمعادن الكثيرة وبخاصة الفيروز، كما كانت تزخر بالعلماء الفضلاء، وتعد هذه المدينة عتبة الشرق. والواقع أن تلك البقاع التي شملتها أقاليم «آل كرت» كانت تفيض بالخير والثراء، فلم يجد الحكام صعوبة في توفير احتياجات البلاد، وكذلك لم يكن لهم طموح في توسيع حدودهم، أو إدخال دولة ما تحت تبعيتهم؛ إذ كانوا أنفسهم تابعين للحكم الإيلخاني المغولي، وحرص الإيلخانيون على ولائهم وكسب ودهم، وبقاء تبعية «آل كرت» لهم.

وقد أدى استقرار الأوضاع الاقتصادية في دولة «آل كرت» إلى

«قهستان» للمغول، ومضى «آل كرت» في طاعتهم للإيلخانيين الذين أسسوا دولتهم في «إيران» و«العراق»، باستثناء بعض الأوقات التي خرج فيها بعض ملوك «آل كرت» على سيطرة الإيلخانيين المغول، ثم سرعان ما يعودون ثانية إلى الانضواء تحت اللواء المغولي، كما فعل «شمس الدين كرت» نفسه حين انضم إلى «الجغتائين» في صراعهم مع الإيلخانيين، ثم عاد ثانية إلى طلب العفو والصفح عنه من الإيلخان «أباقا» المغولي. وبذا يمكن القول: إن أمر تولية «آل كرت» الحكم كان يرجع إلى رغبة «الإيلخان» المغولي، وأصبحت مناطق نفوذ «آل كرت» إمارات تابعة - إلى حد بعيد - للمغول الإيلخانيين، وظلوا على ذلك حتى انتهى أمرهم على يد التيموريين الغزاة في عام (٧٩١هـ = ١٣٨٩م).

* مظاهر الحضارة في إمارة آل كرت:

كانت إمارة «آل كرت» إمارة ثرية؛ إذ ضمت إلى حكمها مناطق عدة اشتهرت بشرواتها وخيراتها ومزروعاتها، وسعة أرضها، وعذوبة مائها، وخصوبة تربتها، فاشتهرت «هراة» ببساتينها الكثيرة، و«غزنة» بسعة أرضها وخصوبة تربتها ووفرة مائها



جلال الدين الرومي

أمراء قراقيونلو في أذربيجان

[٧٨٠-٨٧٣هـ = ١٣٧٨-١٤٦٨م]

* النشأة والتكوين:

ظهرت جماعة من التركمان أطلقوا على أنفسهم اسم «قراقيونلو» (٨) في أواخر عهد السلطان «أبي سعيد بهادرخان» آخر حكام «الدولة الإيلخانية» - في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري = النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي - في الشمال الغربي لآسيا جنوبي بحيرة «وان».

ومما لاشك فيه أن هذه الجماعة قد استفادت استفادة كبيرة من الضعف الذي منيت به «الدولة الإيلخانية» في عهد خلفاء السلطان «أبي سعيد بهادرخان»، ودخلوا في صراع مع التيموريين، واعتنقوا المذهب الشيعي، ويرجع نسب أمرائهم إلى الأمير «محمد تورمش ابن بيرام خواجه».

* الوضع الداخلي:

استطاع الأمير «أبو نصر قرا يوسف نويان بن محمد» أول أمراء «قراقيونلو» أن يقود كتائبهم المنتشرة بالأقاليم المجاورة لأرمينيا و«أذربيجان»، ويستولي على «تبريز» ويجعلها عاصمة لإمارته، ثم اصطدم بأحمد بن أويس الجلائري في عام (٨١٣هـ = ١٤١٠م)، وتمكن منه وقتله، ومد سلطانه وسيطرته على «أذربيجان» (أذربايجان).

ولما غزا «تيمور» بلاد «قرا يوسف» في عام (٨٠٢هـ = ١٤٠٠م)، سلبه ملكه، ولكنه استعاد ما سلب منه في عام (٨٠٨هـ = ١٤٠٥م)، ونادى بابنه «بيربوداق» أميراً على «أذربيجان»



سنة (٨١٠هـ = ١٤٠٧م)، ولكنه توفي فجأة في الطريق بأذربيجان، وكذلك توفي والده «قرا يوسف» في الوقت نفسه، فتولى الأمير «إسكندر بن قرا يوسف» الحكم في عام (٨٢٣هـ = ١٤٢٠م)، واستمر حتى عام (٨٤١هـ = ١٤٣٧م).

فاستطاع أن يتخلص من «قرا عثمان» رئيس «الآق قيونلو» في «ديار بكر»، ويحقق لقبيلته كثيراً من الانتصارات والفتوح من ناحية الغرب، ثم توجه إلى الشرق لصد القوات التيمورية بقيادة «شاه رخ»،

الدولة الصفوية

[٩٠٧ - ١١٤٨ هـ = ١٥٠٢ - ١٧٣٦ م]

* النشأة والتكوين :

يتنسب الصفويون إلى «صفي الدين الأردبيلي» الذي عاش في الفترة من (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م) إلى (٧٣٥ هـ = ١٣٣٤ م)، وهو أحد شيوخ الصوفية، وقد درس في مطلع حياته العلوم الدينية والعقلية في موطنه،



ثم ارتحل إلى «شيراز»، واتصل بالشاعر المعروف «سعدى الشيرازى»، ثم رحل إلى «أردبيل» ومنها إلى «كيلان»، ودخل في زمرة الشيخ «زاهد الكيلانى» وتزوج ابنته، وخلفه في الطريقة، وعهد إلى أبنائه وأتباعه بالعمل على جذب الأتباع والدراويش، والاجتهاد في نشر طريقتهم والدعاية لها. وكان هؤلاء ينتسبون إلى المذهب الشيعى .



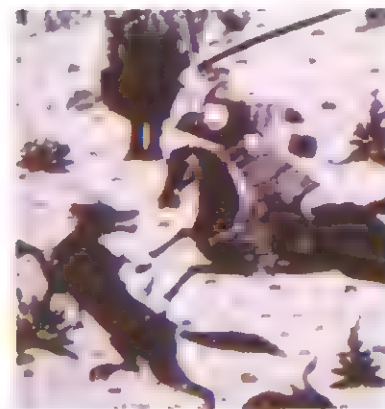
* مظاهر الحضارة في دولة

أمراء قراقيونلو:

لم تتح الحروب والمعارك العسكرية فرصة كافية أمام أمراء «قراقيونلو» للاهتمام بمظاهر الحضارة، فقد عاشت دولتهم في صراعات متواصلة من أجل الحفاظ على حدودها من الجلائريين والتموريين، ولكن ذلك لم يمنع الأمير «جهانشاه» من الاهتمام بالأدب والشعر، إذ كان هو نفسه ينظم الشعر، وكان محبا له .

وقد شيد «جهانشاه» مسجداً يعد تحفة فنية في عمارته، وهو «المسجد الأزرق» الذى يمثل العمارة الإسلامية في هذه المنطقة .

لم يمنح التيموريون أيًا من أمراء «قراقيونلو» فرصة الاتجاه نحو الاهتمام بمظاهر الحضارة، لأنهم كانوا يحطمون كل شيء ويقضون على الأخضر واليابس في غزوهم الشامل على مناطق نفوذ أمراء «قراقيونلو» ، لذا لم يهتم هؤلاء الأمراء بمظاهر الحضارة ، وصرفوا جهودهم إلى النشاط الحربى .



منمنمة لأحد فرسان المغول

نحو خمسة وعشرين عاماً؛ فلما ولى الأمير «حسن» الحكم، لقي هزيمة منكرة على أيدي قبيلة «آق قيونلو» بزعامة «أوزون حسن» فى عام (٨٧٣ هـ = ١٤٩٥ م)، وسقطت أسرة «قراقيونلو»، فكانت النهاية.

* العلاقات الخارجية :

كانت دولة أمراء «قراقيونلو» فى «أذربيجان» ذات علاقات عديدة مع جيرانها، اتصفت - فى المقام الأول- بأنها علاقات ذات صفة حرية، فقد بدأت هذه العلاقة بتبعية هذه القبيلة للدولة الإيلخانية، ثم أقاموا علاقات صداقة مع الجلائريين والعثمانيين بهدف مواجهة الغزو التيمورى، ومما لاشك فيه أنهم استفادوا من هذه العلاقة، خاصة أن «بايزيد» قد وفر الحماية لأمراء «قراقيونلو»، الذين فروا إلى «الأناضول» هرباً من التيموريين، ولكن هذه العلاقة لم تسر على وفاق مع الجلائريين، وقتل «قرا يوسف» «أحمد بن أويس الجلائرى» فى عام (٨١٣ هـ = ١٤١٠ م).

أبعد التيموريون أمراء «قراقيونلو» عن مقار حكمهم أكثر من مرة، وكانت العلاقة سيئة بينهما ، وجاءت نهاية أمراء «قراقيونلو» على أيدي قبيلة «آق قيونلو»^(٩) ، إحدى القبائل التركمانية التى تنتمى إلى عنصرهم ذاته .

وفى أثناء هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة، فهاجم «شاه رخ» الذى كان يحكم القسم الشرقى لإيران الأمير إسكندر بن قرا يوسف، وألحق به الهزيمة فى «تبريز»، وطرده من «أرمينية» فى عام (٨٢٤ هـ = ١٤٢١ م)، ولكن الأوضاع الداخلية للدولة التيمورية أجبرت الأمير «شاه رخ» على العودة إلى «خراسان»، مما أتاح الفرصة للأمير «إسكندر» للعودة إلى إمارته واسترداد ملكه، وتحقيق انتصارات متتالية فى «أرمينية» و«أران»، و«بلاد الأكراد» .

واستمر الصراع بينهما حتى قتل الأمير إسكندر سنة (٨٤١ هـ) فتولى أخوه الأمير «جهانشاه» زعامة أمراء «قراقيونلو»، واصطدم بالتيموريين وهزم «الميرزا علاء الدولة التيمورى» واستولى منه على «خراسان» وفى الوقت نفسه تمرد ابن «جهانشاه» عليه فى «أذربيجان»، فاضطر إلى مصالحة التيموريين ثانية، وأعاد إليهم «خراسان»، ثم عاد إلى «تبريز» عاصمته ليتمكن من مواجهة ابنه والقضاء على تمرد، فخرج عليه «حسن بيك» أحد أفراد قبيلة «آق قيونلو»، وقتله فى سنة (٨٧٢ هـ = ١٤٦٧ م).

كان الأمير «حسن على» هو آخر أمراء هذه الدولة، وهو ابن الأمير «جهانشاه» الذى اعتقله فى «باكو»

* الوضع الداخلي :

شهدت «إيران» فترة عصيبة ضاعت فيها حقوق المواطنين، وساءت معاملتهم، في الفترة التي سبقت قيام «الدولة الصفوية»، فمهد ذلك الطريق أمام شيوخ الصفويين، وتحولوا من أصحاب دعوة وشيوخ طريقة إلى مؤسسي دولة لها أهدافها السياسية والمذهبية. وكانت «إيران» -آنذاك- مقسمة إلى عدة أجزاء، يحكمها عدة حكام، ويستقل كل منهم بما تحت يديه، فعاش الناس حياة قلقية يشوبها الصراع على الحكم، وبحثوا عن مخرج لذلك ناشدين الراحة والهدوء، فلم يجدوا أمامهم سوى

أن يكونوا مريدين وأتباعاً لشيوخ الصفويين وطريقتهم، وذلك في الوقت الذي آلت فيه رئاسة الأسرة الصفوية إلى «إسماعيل»، الابن الثالث لحيدر حفيد الشيخ «صفي»، فأسس «إسماعيل» «الدولة الصفوية» في عام (٩٠٧هـ = ١٥٠٢م)، ثم دخل «تبريز» وأعلن نفسه فيها ملكاً على «إيران»، وتلقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، وأصدر السكة باسمه، وفرض المذهب الشيعي، وجعله المذهب الرسمي لإيران بعد أن كانت تتبع المذهب السني، وقال حين أعلن ذلك: «لا يهمني هذا الأمر، فالله، وحضرات الأئمة المعصومين معي، وأنا لا أخشى أحداً، وبإذن الله - تعالى - لو قال واحد من الرعية حرّاً، فسأسحب سيفي، ولن أترك أحداً يعيش».

وأمر المؤذنين أن يزدوا في الأذان عبارتي: «أشهد أن علياً ولي الله»، و«حي على خير العمل». مضى الشاه «إسماعيل» في إرساء قواعد دولته، وترسيخ دعائم مذهبه، وتنظيم إدارة بلاده، فاتخذ من «حسين بك لله» نائباً له، وجعل «الشيخ شمس الدين اللاهيجي» حاملاً للأختام، واستوزر «محمد زكريا»، ثم قضى على قبيلة «آق قيونلو»، ودخل «شيراز»، وأقر فيها مذهب الشيعي، فأصبحت «إيران» دولة شيعية بين قوتين سنيتين هما: «الهند» والأتراك من جهة الشرق، والعثمانيون والشام في الغرب. قاست «بلاد الكرج» و«أرمينية» مرارة الصراع بين الصفويين والعثمانيين، إذ إنها تارة تصير تابعة للصفويين، وأخرى تابعة للعثمانيين.



* الشاه إسماعيل الأول (٩٠٠هـ = ١٤٩٤م):

تميز الشاه «إسماعيل» بالصبر والذكاء وقوة الإرادة، والشجاعة والإقدام وحسن الإدارة، فالتف الناس حوله بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، وأقام دولته على أساس مذهبي ذي أصول سياسية واقتصادية وإدارية، ووضع الأساس الذي استمرت عليه هذه الدولة نحو قرنين من الزمان، وباتت ذات دور مؤثر وحيوي في المنطقة، وقد أعجب معاصرو الشاه «إسماعيل» به وبسياسته، وقد وصفه «ميرخواند» في كتابه «روضة الصفاء» بقوله: «كان ذلك الملك نادرة

ويعود لمراد الرابع الفضل في تحديد حدود «إيران» الغربية، حيث ضم «بغداد» و«الجزيرة» إلى الحكم العثماني سنة (١٠٤٨م)، كما نجح «أحمد دراني» في إقامة دولة مستقلة في «أفغانستان» بعد أن كانت تابعة مرة للهند، وأخرى لإيران، فلما ضُمت «هراة» إلى «أفغانستان» رُسمت حدود «إيران» الشرقية، ثم حددت حدودها الشمالية باستيلاء الروس على المناطق الشمالية، وبقيت هذه الحدود قائمة حتى تمت «اتفاقية الجزائر» في عام (١٩٧٥م).

الزمان، وأعجوبة الليل والنهار».

ولعل من أبرز إنجازات «إسماعيل الصفوي» هي إقراره لوحدة «إيران» الوطنية والسياسية، وتحديد معالم شخصية دولته في الداخل والخارج، غير أنه صعد -في الوقت نفسه- حدة الصراع بين الصفويين والعثمانيين، وعمّق الخلاف المذهبي بين السنيين والشيعية.

خلف الشاه «طهماسب الأول» أباه «إسماعيل الأول» على العرش في (يوم الاثنين ١٩ من رجب عام ٩٣٠هـ = ١٥٢٤م)، وحكم أكثر من نصف قرن دخل خلالها في حروب كثيرة مع العثمانيين

والأوزبك و«كرجستان»، ثم خلفه ابنه الشاه «إسماعيل ميرزا» الذي تلقب بالشاه «إسماعيل الثاني» في عام (٩٨٤هـ = ١٥٧٦م)، واعتمد سياسة الاعتدال في نشر المذهب الشيعي، فأبعد عددًا من علماء الشيعة المتعصبين عن بلاطه، وأمر بمنع لعن الخلفاء الثلاثة والسيدة «عائشة» فوق المنابر وفي الطرقات، وحاول إعادة المذهب السني إلى البلاد بالتدرج، مما أثار عليه حفيظة الطبقة الحاكمة وأغلبية المجتمع، وقرروا عزله وتعيين ابن أخيه «حسن ميرزا» إذا لم يتراجع عن ذلك، فعمل على تهدئة الثورة التي قامت ضده، وأبعد علماء المذهب السني عن بلاطه، ونقش على السكة بيتًا

مضمونه : أن عليا وآله أولى بالخلافة في العالم الإسلامي كله. لم يتمكن الشاه «إسماعيل الثاني» من البقاء في الحكم فترة طويلة، حيث قُتل، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتله، وتم اختيار «محمد خدا بنده» ملكًا على «إيران» في عام (٩٨٥هـ = ١٥٧٨م)، فكثرت في عهده الاضطرابات التي لم يستطع السيطرة عليها، إذ لم يكن جديرًا بالحكم، فخلفه ابنه الشاه «عباس الأول» على العرش من عام (٩٩٦هـ = ١٥٨٨م) إلى عام (١٠٣٨هـ = ١٦٢٩م)، ويعد عهده من أبرز عهود الحكم الصفوي في «إيران» وأهمها؛ إذ عمل على رفاهية شعبه وتعمير بلاده، ونقل

محراب مسجد الجمعة - أصفهان



عاصمة دولته من «قزوین» إلى «أصفهان»، وأعاد الحكم المركزي إلى «الدولة الصفوية»، على الرغم من الصعوبات والحروب الكثيرة التي اعترضت سبيله، ونجح في إقرار أمن بلاده وتأمين رعيته؛ واتخذ مجلسًا لبلاطه ضم سبعة أشخاص بسبع وظائف هي : «اعتماد الدولة» - «ركن السلطنة» - «ركن الدولة» - «كبير الياوران» - «قائد حملة البنادق» - «رئيس الديوان» - «كاتب مجلس الشاه». وبالرغم من وجود هذا المجلس كان هو صاحب القرار الأول والأخير في الدولة.

ثم توالى على حكم «الدولة الصفوية» - عقب وفاة الشاه «عباس الصفوي» - شاهات ضعاف؛ أدى الصراع فيما بينهم على السلطة إلى ضعف الدولة، فضلًا عن أن ذلك أعطى الفرصة للأعداء الخارجيين الذين كانوا متربصين بالدولة، وبخاصة الأتراك العثمانيون، لغزوها ومحاوله السيطرة عليها. وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرًا من الرحالة الأوربيين الذين وفدوا على بلاط الصفويين؛ وصفوا مدى الأبهة والعظمة التي وفرها الصفويون في بلاطهم، ولعل أبرز ما كان يميز هذا البلاط هو سيطرة رجال الدين واتساع نفوذهم، حتى بات أمر الدولة كله في أيديهم،

نظرًا إلى أنها دولة مذهبية، اتخذت من الدين أساسًا لقيامها، والدعوة إلى مذهبها.

بدأ نجم «الدولة الصفوية» في الأفول عقب وفاة الشاه «عباس الصفوي»، وحكمها «صفى الأول» عام (١٠٣٨هـ = ١٦٢٩م)، ثم «عباس الثاني» عام (١٠٥٢هـ = ١٦٤٢م)، ثم «سليمان الأول» عام (١٠٧٧هـ = ١٦٦٧م)، ثم «حسين الأول» عام (١١٠٥هـ = ١٦٩٤م)، ثم «طهما سب الثاني» (١١٣٥هـ = ١٧٢٢م) ثم «عباس الثالث» الذي حكم من عام (١١٤٤هـ = ١٧٣١م) إلى عام (١١٤٨هـ = ١٧٣٦م).

وجميع هؤلاء الشاهات الصفويين لم تكن لديهم الصفات التي تمتع بها الشاه «عباس الأول»، وبدت الأمور أمامهم مجرد مظاهر ملكية يجب الحفاظ عليها، ونسوا أمور بلادهم، فضعت الدولة، وضاعت هيبتها، وسقطت أجزاءها واحدة تلو الأخرى، فضاعت الدولة، وسقط العرش. وسقطت «الدولة الصفوية» في عام (١١٤٨هـ = ١٧٣٦م) فانقسمت «إيران» إلى عدة مناطق منفصلة.

* العلاقات الخارجية :

أقام الصفويون علاقات متميزة مع سائر الدول، وكان الاقتصاد

-مثلًا في التجارة - هو المحرك الأساسي لعلاقاتهم الخارجية، ولعل حركة البضائع الشرقية كانت سببًا في نشاط الكشوف الجغرافية وظهور قوتين عظميين لعبتا دورًا مهمًا في هذا الميدان، هما : «البرتغال» و«إسبانيا»، ومما لاشك فيه أن هذا النشاط الكشفي كان الهدف منه إيجاد طريق جديدة للتجارة الآسيوية، خاصة تجارة «الهند» التي كانت التوابل أهم عناصرها. وفي سبيل هذا عمد البرتغاليون إلى البحث عن طريق بعيدة عن «البحر المتوسط» الذي يهيمن عليه المماليك في «مصر» و«الشام» من ناحية، وتهيمن عليه بعض المدن الإيطالية من الناحية الأخرى.



حاول «بارثليميو دياز» البرتغالي في عام (٨٩٢هـ = ١٤٨٧م) الدخول إلى «المحيط الهندي» عن طريق الالتفاف حول طريق «رأس الرجاء الصالح»، ولكنه فشل، وبعده باثني عشر عامًا استطاع البحار البرتغالي «فاسكو داجاما» الوصول إلى «الهند» بواسطة طريق «رأس الرجاء الصالح»، وأقام البرتغاليون مستعمرات لهم في «الهند» و«آسيا»، وأخضعوا أمير «هرمز» لهم، وأخذوا منه غرامة حربية، وفرضوا عليه مبلغًا من المال يدفعه سنويًا خراجًا لدولتهم، في الوقت نفسه طالب الشاه الصفوي «إسماعيل الأول» هذا الأمير

بتسديد الخراج السنوى المفروض عليه من قبل «الدولة الصفوية» ، فاستعان «أمير هرمز» بالقائد البرتغالى «البوكيرك» لتخليصه من ذلك ، فأرسل «البوكيرك» إلى الشاه «إسماعيل الأول» برسالة جاء فيها :

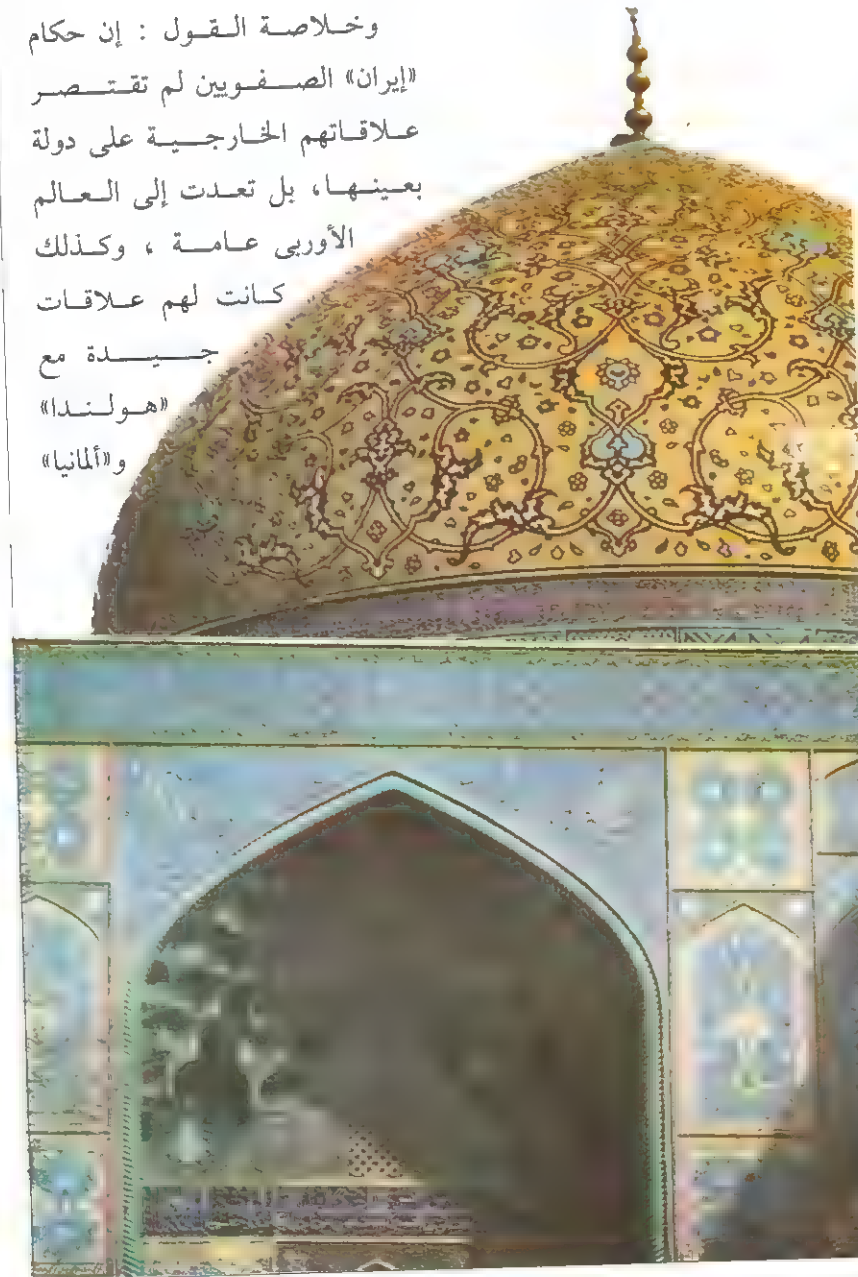
«إن استيلاء البرتغال على هرمز كان بالقوة ، والقدرة لملك البرتغال ، وليس لأحد من حق فى الخراج إلا له» ، ثم أرسل هذا القائد بعض طلقات البنادق والمدافع والبارود إلى أمير «هرمز» وأمره أن يرسلها إلى الشاه «إسماعيل الصفوى» بدلا من الخراج الذى طالب به ، ويخبره أن إجابة ملك البرتغال على الأعداء تكون بهذه الأشياء . ولم تلبث الأوضاع طويلا بين الطرفين على هذه الحال ، وتم توقيع معاهدة بين الدولتين الصفوية والبرتغالية فى عهد الشاه «إسماعيل الأول» ، إذ كان للبرتغاليين نفوذ قوى فى الخليج ، وكانوا يحتكرون التجارة فى موانئ جنوب «إيران» .

انفتح الإيرانيون على العالم الخارجى ، وزادت علاقاتهم مع الدول الأوربية فى عهد الشاه «عباس الأول» ، ووفد على «إيران» العديد من السفراء الأوربيين ، كما أوفد السفراء الإيرانيون إلى البلاد الأوربية ، لإبرام الاتفاقات ، وعقد المعاهدات

- سواء التجارية أو السياسية - بين «أوربا» و«إيران» ، وتم الاتفاق على فتح طريق تجارى بين «أوربا» و«آسيا» عبر «بحر الشمال» ، وفى سنة (٩٦٠هـ = ١٥٥٣م) ذهب الإنجليزي «ريتشارد شانسلر» إلى «موسكو» ، وتمكن من إقامة علاقات اقتصادية لبلاده مع ولايات «إيران» الشمالية فى عهد الشاه «طهماسب الأول» ، والملكة «اليزابيث» . وقد سجلت إحدى

الوثائق السياسية الإنجليزية أحداث لقاء تم بين الإنجليزي «آرثر ادوارد» ، والشاه «طهماسب الأول الصفوى» ، وتمخض هذا اللقاء عن منح التجار الإنجليزي حرية السفر إلى «جبلان» ، أو إلى أى مكان فى أملاك «الدولة الصفوية» ، ووعد الشاه «طهما سب» الإنجليزي بحماية سفنهم فى بحر «الخرز» من أى عدوان ، ومنحهم عدة امتيازات أخرى غيرها .

وخلاصة القول : إن حكام «إيران» الصفويين لم تقتصر علاقاتهم الخارجية على دولة بعينها ، بل تعدت إلى العالم الأوربى عامة ، وكذلك كانت لهم علاقات جيدة مع «هولندا» و«ألمانيا»



مسجد الشيخ لطف الله - أصفهان

* مظاهر الحضارة فى الدولة الصفوية:

تمكن الصفويون من إقامة دولة قومية لهم فى «إيران» على أسس مذهبية ، وأحيوا بها الروح القومية ، ووجدوا عناصر الشعب تحت لواء مذهبهم الذى قاموا بنشره بالترهيب والترغيب بين الطبقات كافة .

وانتفع الصفويون فى تكوين حضارتهم بالصراع العسكرى فى حروبهم ضد العثمانيين ؛ إذ كلفوا «روبرت» ، و«أنتونى شيرلى» الإنجليزيين بإنشاء مصنع للمدافع لهم ، فكان سببا من أسباب تقدم حضارتهم العسكرية ، وانتقل «طهما سب» بعاصمة بلاده من «تبريز» إلى «قزوین» نتيجة توغل السلطان العثمانى «سليمان القانونى» فى «العراق» ، ثم فى «تبريز» و«أصفهان» ، وأخذ «طهما سب» فى بلاطه الحديد بكل أسباب التحضر والتأنق والدقة ، حيث كان خطاطا ماهرا ، وله دراية عالية بفنون النقش من خلال دراساته فى هذا المجال .

وفى سنة (١٠٠٧هـ = ١٥٩٨م) ، نقل الشاه «عباس الصفوى» عاصمة بلاده إلى «أصفهان» ؛ فدبت بها حياة

جديدة ، وراجت بها التجارة ، وازدهرت الصنائع والفنون ، وعمد «الشاه عباس» إلى تطوير الجيش وتحديثه ، فاستبدل جيشه القديم -المكون من قوات قبلية- بجيش نظامى جديد ، واستحدث فيه فرقة عسكرية جديدة أطلق عليها اسم «أصدقاء الملك» ، وكانت هذه

الفرقة تضم عشرة آلاف فارس ، وكان ضعف هذا العدد من المشاة ، ثم مضى فى طريق التحديث العمرانى فشيّد الطرق ، وشق القنوات ، وأعد الأماكن اللازمة لنزول القوافل التجارية فى طول البلاد وعرضها ، وأقام مدينة ملكية جديدة فى «أصفهان» ، وجعلها

مسجد الجمعة - أصفهان



مجاورة للمدينة القديمة، وأنشأ بها الإنشاءات اللازمة، ثم ضاعف هذه الإنشاءات في عام (١٠٢٠هـ = ١٦١١م)، وبنى لنفسه بها قصرًا عظيمًا، وأنشأ حول ميدانه مسجدًا كبيرًا أسماه «مسجد شاه»^(١٠)، وجعل بجواره مسجدًا آخر أصغر منه، وأحاط المدينة بسور من الآجر والطين، وأقام بها الأسواق المسقوفة، ومائة واثنين وستين مسجدًا، وثمانين وأربعين مدرسة دينية، وألفى رباط لإقامة القوافل، وثلاثمائة حمام عام، وجعل لكل منزل بها حديقة خاصة، كما جعل شوارع هذه المدينة متعرجة وضيقة، ربما لأسباب أمنية ودفاعية، فبلغ

تعداد السكان بالمدينة الجديدة نحو ستمائة ألف نسمة في ذلك الوقت، ولقد بقيت آثار هذه المدينة شاهد صدق على عظمة الحضارة الصفوية إلى وقتنا الحاضر.



مسجد الشاه بأصفهان

شاهات إيران

من الأفاغنة والإفشارية والزندية والقاجارية

[١١٣٥ - ١٣٤٤هـ = ١٧٢٢ - ١٩٢٥م]

أ - الأفاغنة :

تمرد الأفغاني «محمود بن ميرويس» ورفع راية العصيان على «الدولة الصفوية» في عهد الشاه الصفوي «حسين الأول»، فلما لم يجد هذا الرجل من يأخذ على يديه ويوقف عصيانه؛ تمكن من الاستيلاء على مدينتي «هراة» و«مشهد»، وهما من أهم مدن دولة الصفويين، ولم يكتف بذلك؛ بل استولى على العاصمة «أصفهان» في سنة (١١٣٥هـ = ١٧٢٢م)، فدخلت دولة الصفويين في طور السقوط والانهار النهائي، وتحولت من دولة كانت تتمتع بالنفوذ والسطوة والهيبة في عهد «عباس الأول» ومن سبقوه؛ إلى هيكل ضعيف لا حول له ولا قوة، وظهرت إلى جانبها قوى أخرى جديدة وفتية سلبتها حق التمتع بإمكاناتها وممتلكاتها، وسلبت حكمها حق الانفراد بحكم البلاد.

أقام الأفغانيون دولتهم على ما سلبوه من أراضي الدولة الصفوية، وكان أول حكامهم هو «محمود بن ميرويس» الذي حكم في (١١من المحرم عام ١١٣٥هـ = ١٧٢٢م)، وقُتل في سنة (١١٣٧هـ = ١٧٢٥م)، فخلفه «أشرف بن

عبدالله» في الحكم، وظل به حتى عام (١١٤٢هـ = ١٧٢٩م)، ثم ظهر الأمير الأفغاني «آزاد خان» مطالبًا بالحكم في «أصفهان» في سنة (١١٦٦هـ = ١٧٥٣م)، وتم له ما أراد، وظل في الحكم حتى سنة (١١٦٩هـ = ١٧٥٦م).

ب - الأفشارية :

لم يستمر حكم الأفاغنة طويلاً؛ إذ استعان الشاه «طهما سب الثاني» - على دفع تهديد الأفغان - بالقوى المحيطة، فأسرعت «روسيا» إلى مساعدته فيما طلب، نظير السماح لها بدخول «استراباد»، وهكذا تمكن الروس من وضع أقدامهم في هذه المناطق.

ثم ظهرت قوة جديدة حكمت في الفترة من سنة (١١٤٨هـ = ١٧٣٦م) إلى سنة (١٢١٠هـ = ١٧٩٦م) عرفت باسم الأفشارية، واستطاع «نادر شاه الأفشاري» أن يقضى على حكم الأفغان، ويخلع الشاه «طهما سب الثاني» ويسجنه مع طفله الرضيع «الميرزا عباس الثالث»، ثم أعلن تنصيبه ملكًا على «إيران» في سنة (١١٤٨هـ = ١٧٣٦م)، وظلت أسرته تحكم أكثر من ستين عامًا، أي إلى سنة (١٢١٠هـ = ١٧٩٦م)، وقد اتسم

حكم «نادر شاه» بالسطوة والعنف ضد الرعية، مما أسرع بقتله على يد أحد ضباطه، فأدى ذلك بدوره إلى ظهور «الزنديين»، وأصبح زعيمهم «محمد كريم خان» شاه «إيران» في سنة (١١٦٣هـ = ١٧٥٠م)، ولكن هذه الأسرة لم تستطع مد نفوذها إلى «خراسان» التي كانت في قبضة «شاه رخ» الإفشاري، وبقيت هذه الأسرة الزندية في الحكم مدة خمسين عامًا، حتى قُتل آخر حكامهم «لطف علي» على يد «آقا محمد» القاجاري في الرابع عشر من المحرم عام (١٢١١هـ = ١٧٩٩م)، فظهرت «الأسرة القاجارية».

ج - الأسرة القاجارية :

هي إحدى الأسر المغولية، وانتشر أفرادها في البلاد الإسلامية، وأقاموا بصفة خاصة بأرمينية، واقتصر دورهم في عهد الشاه «إسماعيل الأول الصفوي» على تقديم العون إلى الصفويين، حيث اتخذ منهم جنودًا لمواجهة شر القبائل المهاجمة لحدوده، فازدادوا بذلك قوة ونفوذًا، ثم استطاع «آقا محمد خان» توحيد فروع قبيلته بالقسوة والعنف حتى تمكن من

الاستيلاء على «طهران» في سنة (١١٩٣هـ = ١٧٧٩م)، ثم أقام «الدولة القاجارية»، وأصبح أول ملوكها، وأطلق على نفسه لقب ملك «إيران» في عام (١٢١١هـ = ١٧٩٦م)، وقضى على «الزنديين»، وحقق السيطرة الكاملة على «إيران» و«جورجيا»، ثم خلفه «فتحعلي شاه» في الفترة من (١٢١٢هـ = ١٧٩٧م) إلى (١٢٥٠هـ = ١٨٣٤م)، وامتاز عصره بالهدوء النسبي، وإن تخللته بعض الاضطرابات والمشاكل السياسية.

* العلاقات الخارجية:

دفع الأفغان «الشاه طهما سب الثاني الصفوي» إلى الاستعانة بروسيا، وإلى عقد معاهدة مع قيصرها «بطرس»، وتخلت «إيران» بموجبها رسمياً عن «دريند»، و«باكو»، والسواحل الجنوبية لبحر «مازندران» حتى «استراباد»، فتحقق لروسيا حلم الوصول إلى هذه المناطق، وأطمعها ذلك في شمال

البلاد حين نشب الصراع على السلطة بين الصفويين والأفغان، ولعل ذلك هو الذي دفع العثمانيين إلى الهجوم على بلاد «الكرج». ثم أسس «نادر شاه الأفشاري» دولته بإيران، وبذل جهوداً مضنية للقضاء على الانقسام القائم في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي، وأعلن المذهب السني مذهباً رسمياً للبلاد؛ عوضاً عن المذهب الشيعي،

لم تسفر حروب «نادر شاه» الخارجية عن فائدة فعلية لشعبه،

بل على العكس من ذلك، فقد قاد جيوشه من أقصى الشرق إلى الغرب، وحمل الشعب أعباء الإنفاق على هذه الجيوش، في حين كان من الممكن أن يصرف هذا الإنفاق على تنمية البلاد ورفاهية هذا الشعب.

استطاع «آقا محمد القاجاري» أن يسيطر على كل «إيران» و«جورجيا»، ثم خلفه ابن أخيه «فتحعلي شاه»، فأقامت «إيران» في عهده علاقات سياسية مع الدول الأوروبية، وعقد في سنة (١٢٢٢هـ = ١٨٠٧م) معاهدة تحالف مع «فرنسا»، ولذا كان من المتوقع أن تسمح «إيران» لنابليون بونابرت بالمرور عبر طريقها البري للوصول إلى «الهند» في مقابل أن تمد فرنسا «الدولة القاجارية»

بالأسلحة، ومدربى الجيش، لكي تتمكن «إيران» من التصدي لروسيا القيصرية التي استولت على «جورجيا» في عام (١٢١٦هـ = ١٨٠١م)، ولكن الأمور لم تسر وفق ما كان متوقعاً، فقد اتفق «بونابرت» مع «روسيا»، ووقع الروس والإيرانيون معاهدة «كلستان» في عام (١٢٢٩هـ = ١٨١٣م)، واعترفت «إيران» بموجب هذه المعاهدة بحق ملكية «روسيا» لجورجيا، ومع ذلك لم تستقر الأوضاع، ودخلت «إيران»

في سلسلة من الحروب مع «روسيا»، التي استولت على «تبريز»، وفرضت على «إيران» غرامة مالية، بموجب معاهدة «تركمان جاي» التي عقدت في سنة (١٢٤٤هـ = ١٨٢٨م)، فضلاً عن تنازل «إيران» عن إقليم «إريوان» و«نخجوان» لروسيا، ووضع «بحر قزوين» تحت الرقابة الحربية الروسية، فباتت «إيران» بين شقي رحى في علاقاتها الخارجية مع «روسيا» التي تعمل على التوسع في «آسيا» على حساب ولايات «إيران» الشمالية للوصول إلى مياه الخليج الدافئة، و«بريطانيا» التي تعمل على تأمين الطريق إلى مستعمراتها في «الهند» من خلال السيطرة على «الخليج الفارسي»، والأراضي المجاورة للهند.

وجدير بالذكر أن خمس عشرة دولة أجنبية حصلت على امتيازات لرعاياها في «إيران» في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، ثم امتلأت «إيران» بالأجانب في عهد «ناصر الدين شاه القاجاري»، في الوقت الذي تزايد فيه نفوذ رجال الدين الشيعة، لسيطرة مذهبهم الشيعي على كل «إيران»، وكذلك على حكامها.

وقد شهد الربع الأول من القرن العشرين تطوراً في سياسة «إيران» الخارجية، حيث عقدت مع



«روسيا» في عام (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) معاهدة صداقة، ألغيت بمقتضاها جميع المعاهدات السابقة التي كانت تضر بالمصالح الإيرانية، وأسقطت «روسيا» بموجبها ديون «إيران» التي لم تُسد من قبل، وتنازلت عن امتيازاتها وتملكاتها في «إيران» مثل: خط السكة الحديدية، وخطوط البرق. ولعل الذي دفع «روسيا» إلى التنازل عن كل ذلك هو خوفها من محاولات «بريطانيا» للتدخل في شؤون «إيران» ووضعها تحت سيطرتها.

* مظاهر الحضارة في إيران :

كان لموقع «إيران» الجغرافي أهميته البالغة - وما زالت - في تحقيق أسباب حضارتها ومدنيتها ؛ حيث إنها المعبر البري بين الشرق والغرب ، وقد حقق لها ذلك مزية الرواج التجاري ، ونقل الثقافات ، والاستفادة من خبرات الآخرين ، وفي الوقت نفسه جرَّ عليها الأطماع. وقد تحملت «إيران» العناء والخراب والدمار الذي لحق بها وبمواطنيها - منذ القدم - بسبب موقعها الجغرافي ، ومع ذلك لا



قنية خرفية صنعت بكرمان

يمكن لأي مؤرخ منصف أن ينكر دور «إيران» الحضاري في الثقافة والفنون والتقاء الحضارات المتعددة وتمازجها .

ومن الحقائق الثابتة أن الحكم الإيراني قد تأسس على السلطة المطلقة للملك ، الذي كان يسانده مجموعة من الإقطاعيين أطلق عليهم لقب «الولاة» ، نظراً لمساحة الأراضي الشاسعة ، فكان كل واحد من هؤلاء «الولاة» ينوب عن الملك في حكم إحدى مقاطعات البلاد ، وله حق توريث الولاية من بعده ، فنشأ نظام «الأسر الإقطاعية» التي زادت سطوتها ، واتسع نفوذها ، وقاد أمراؤها حركات التمرد على الشاه الموجود في العاصمة ، كما قاموا بالحركات الانفصالية ، التي كان لها من السند والقوة ما يحول دون إمكانية القضاء عليها ، ولعل هذه الأوضاع هي التي أوجدت الثراء الفني والثقافي ، في طول البلاد وعرضها ، وعملت على تنوعه وتعدد اتجاهاته .



سجادة من إيران

التيموريون

بلاد ما وراء النهر-الحاضرة سمرقند

[٧٧١ - ٩٠٦هـ = ١٣٢٩ - ١٥٠٠م]



لملكه، وأعلن ذلك رسمياً في عام (٨٠٠هـ = ١٣٩٧م)، ثم مضى في تنظيم حكومته الجديدة ، واتبع قانون «چنكيزخان» (الساسا المغولية)، بما لا يتعارض مع القرآن الكريم والسنة النبوية .

كان «تيمور لنك» ميالاً إلى الفتح والتوسع ، وغزا «خوارزم» في عام (٧٧٣هـ) ، ثم دخلها وسيطر عليها في عام (٧٨١هـ) ، فأضحت «آسيا الوسطى» كلها تحت سلطانه .

* الوضع الداخلي :

بدأ حكم «تيمور كورخان» (تيمورلنك) منذ دخل «سمرقند» في عام (٧٧١هـ = ١٣٢٩م) ، فكان مجلس شوري من كبار الأمراء والعلماء ، وعلى الرغم من أنه كان الحاكم الفعلي للبلاد ، فإنه عمداً إلى اختيار الأمير الجغتائي «سيورغتمش بن دانشمندجة» ، وجعله رمزاً للحكم ولقبه بلقب السلطان في الفترة من سنة (٧٧١هـ = ١٣٢٩م) إلى سنة (٧٩٠هـ = ١٣٨٧م) ، ثم اتخذ

الاضمحلال والضعف؛ قامت «الدولة الجغتائية» بمساعدة قبيلة «برلاس»، فحفظ الجغتائيون هذا الجميل ، وولوا «تيمور لنك»^(١١) ولاية «كش»، حين التجأ إليهم أثناء الاضطرابات التي عصفت ببلاد «ما وراء النهر» ثم لم يلبث أن أخرج الجغتائيين من بلاد «ما وراء النهر» ، وطارد قبائل «الجتة» البدوية ؛ التي اتسمت بالعنف والوحشية . وتمكن من طردهم من «بلاد ما وراء النهر» ، ثم أعلن نفسه سلطاناً في «بلخ» على هذه المنطقة، واتخذ «سمرقند» عاصمة

* النشأة والتكوين :

ينتسب التيموريون إلى قبيلة «برلاس» المغولية، ويرجعون في أصلهم إلى «تيمور بن ترغاي بن أبغاي»، الذي أحاط المؤرخون نسبه بهالة من الرفعة وعلو الشأن، ليبرروا استيلاءه على «بلاد ما وراء النهر»، فقد كان أبوه «أمير مائة» عند السلطان المغولي، وكان المغول يستخدمون الأتراك في دواوينهم، وأكثروا منهم، حتى صارت اللغة التركية هي لغة البلاط والمجتمع في «بلاد ما وراء النهر» ، فلما دخلت «الدولة المغولية» مرحلة

من بعده «محمود بن سيورغتمش» من عام (٧٩٠هـ = ١٣٨٧م) إلى عام (٨٠٠هـ = ١٣٩٧م).

وقد اتسمت سياسة «تيمور لنك» بالتوسع، فزحف إلى «إيران» في سنة (٧٨٢هـ = ١٣٨٠م)، وتمكن من الاستيلاء على «خراسان» و«جرجان»، و«مازندران»، و«سيستان»، و«أفغانستان»، و«فارس»، و«أذربيجان»، و«كردستان»، ثم دخل «چورچيا» وغرب «إيران» في عام (٧٨٦هـ = ١٣٨٤م)، وتمكن من فتح «العراق» و«سورية» (حلب ودمشق)، وهزم المماليك في الشام، وحقق انتصارات عظيمة في «الهند» عقب وفاة «فيروزشاه» سلطان «دهلي» في

عام (٧٩٩هـ = ١٣٩٧م)؛ حيث استولت جيوشه على حصن «أوكا»، وأسقطت «الملتان»، وفتحت «آباد»، ودخلت «هراة» بالأمان، ولاقى «تيمور لنك» مقاومة شديدة وصعوبة في دخول «دهلي» على يد سلطانها «محمود تغلق»، ولكن هذه المقاومة لم تستمر طويلا، ودخل «تيمور» هذه المدينة، فقدم إليه أعيانها وعلمائها فروض الولاء والطاعة، وخطب له فيها. وعلى الجانب الآخر حقق «تيمور لنك» انتصارات كثيرة على الأتراك العثمانيين، وأسر حاكمهم «بايزيد خان». وتوفي «تيمور لنك» في «أترار» عن عمر يناهز السبعين عاماً في سنة

(٨٠٧هـ = ١٤٠٥م) بعد أن دانت له البلاد من «دهلي» إلى «دمشق»، ومن «بحيرة آرال» إلى «الخليج العربي»، فلما علمت بوفاته الأسر الحاكمة من «آل المظفر»، و«آل جلالت»، و«ملوك كرت»، وكذا الأسر التركية والتركمانية أخذت جميعها تطالب باستقلالها عن خلفاء «تيمور»، وعودتها إلى الحكم ثانية، فأنارت الفتن والفتن، وكثرت الاضطرابات والمشاكل في طول البلاد وعرضها، وتعرضت «الدولة التيمورية» إلى نكسة حقيقية عقب وفاة عاهلها ومؤسسها «تيمور»، وتمكنت بعض الأسر الحاكمة - من قبل - من العودة إلى الحكم، وإعادة ما سلب

من أملاكها وممتلكاتها، فصارت هناك عدة أسر حاكمة تنافس خلفاء «آل تيمور» ثم خلف «تيمور لنك» ابنه «شاه رخ» على العرش سنة (٨٠٧هـ = ١٤٠٥م) واستمر في الحكم إلى سنة (٨٥٠هـ = ١٤٤٧م) فعاشت البلاد في عهده أفضل فترات الحكم؛ إذ كان مجبا للعلم والعلماء، وحفيا بالثقافة، كما كان عادلا وتقيا وورعاً، فاشتهر بسلوكه الحسن وسيرته الطيبة بين الرعية.

ولى «شاه رخ» أملاك «الدولة التيمورية» فيما عدا «سوريا» و«العراق العربي»، فقام بإصلاحات كثيرة في البلاد، وشيد المباني، وبنى المدارس الكثيرة في

«بخارى» و«سمرقند»، وأنشأ مرصده الشهير، ثم خلفه ابنه «أولوغ بك» على العرش، وقتله ابنه «عبد اللطيف بن أولوغ» في سنة (٨٥٣هـ = ١٤٤٩م) ولم يستفد من قتل أبيه، إذ قتل هو الآخر، وتمكن «أبو سعيد مرزا» من الاستيلاء على الحكم بسمرقند في سنة (٨٥٤هـ = ١٤٥٠م)، ثم تولى من بعده «أحمد» في سنة

مدفن تيمور لنك



(٨٧٢هـ = ١٤٦٧م)، ثم من بعده «محمود» في سنة (٨٩٩هـ = ١٤٩٣م)، ولم يلبث بالحكم سوى عام واحد فقط، ثم حدثت الاضطرابات في سنة (٩٠٦هـ = ١٥٠٠م)، وقضى «الشيبانيون» على «الأسرة التيمورية» فيما عدا «ظهير الدين بابر» الذي فر إلى «الهند»، وتمكن بعد ذلك من تأسيس دولة عظيمة بها.



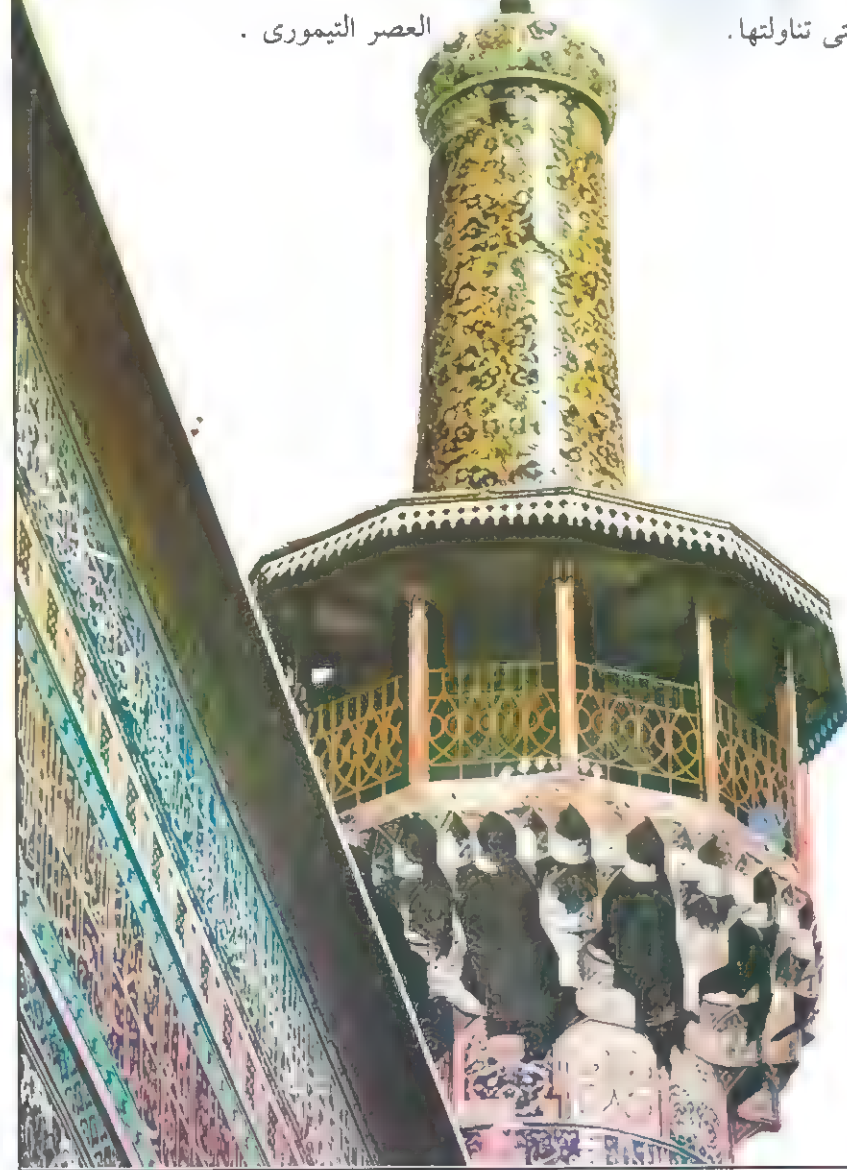
* العلاقات الخارجية :

اتسمت علاقة «الدولة التيمورية» بالعالم الخارجي بالعداء والتناحر ، بسبب رغبتها في التوسع على حساب جيرانها، وقد طرد «تيمورلنك» الجغتائيين من بلاد «ما وراء النهر» ، ثم أسس دولته التيمورية بها، واستولى على «خوارزم» في عام (٧٨١هـ)، ثم استولى على «إيران» ، و«أفغانستان» ، و«أذربيجان» ، و«العراق» ، و«سورية» ، ودخل حروباً كثيرة من أجل تحقيق ذلك، وأحرز انتصارات متعددة في بلاد «الهند» ، ثم دخل «دهلي» ، فأصبح ذا ملك عظيم، وسيادة على مساحة شاسعة من الأرض، ولكن خلفاءه لم يحافظوا على ما سعى من أجل تحقيقه طيلة حياته ، وكان وفاته جاءت إيذاناً بالعودة إلى أعداء الدولة ومنافسيها ، لاستعادة عروشهم ، والاستقلال ببلادهم التي اغتصبها التيموريون جبراً ، وقسراً ، وعدواناً ، وعلى الرغم من ذلك لا يجب إغفال دور «شاه رخ بن تيمورلنك» (٨٠٧ - ٨٥٠هـ = ١٤٠٥ - ١٤٤٧م) ؛ إذ كان رجلاً عادلاً تقياً ، غير محب للحرب ، وغير ميال إلى سفك الدماء ، إلا إذا اضطرته الضرورة إلى ذلك ، وكان اهتمامه موجهاً إلى إصلاح شأن البلاد والنهوض بها وبعمارتها ، فعاشت البلاد في عصره أزهى فترات تاريخها .

* مظاهر الحضارة في الدولة التيمورية:

شيد «تيمورلنك» حضارة عظيمة في بلاده، وأقام بها المنشآت الشامخة، ولعل المدرسة الدينية الكبيرة التي بناها لزوجته الصينية «بيبي خاتون» خير دليل على عظمة حضارة «الدولة التيمورية» في عهده، فهي تحفة فنية مكونة من أربعة إيوانات، وفي وسطها فناء واسع ، تحيط به عقود ذات قباب، على رأس كل منها منارة. وتعد المقبرة التي بناها لنفسه آية من آيات البناء ، ومثالا لسمات المعمار في العصر التيموري .

كان «تيمورلنك» رجلاً واسع المعرفة ، يتقن التحدث بلغات ثلاث هي: «التركية»، و«الفارسية»، و«المغولية»، محباً للأطباء والفلكيين، وكذا الفقهاء ، وقد جمع الفنانين وأصحاب الحرف من كل أطراف الدنيا في عاصمته «سمرقند» ، وكانت حياة المحاربين وأخبار الحروب وتواريخها من أحب المعارف التي يسعى إلى معرفتها، والقراءة في الكتب التي تناولتها.



مسجد جوهر شاد والمنذرة

«خرگرد» التي تقع إلى الغرب من «هراة» ، وتقع حالياً في شرقي «إيران». ثم خلف «ألوغ بيك» أباه على العرش ، فكانت فترة حكمه قصيرة ، ومع ذلك فقد حرص خلالها على رعاية الفنون والآداب الفارسية .

يعد «شمس الدين محمد حافظ الشيرازي» ألمع شخصية أدبية عرفها العصر التيموري، ويمثل شعره ازدهاراً للحركة الثقافية في هذا العصر ، وقد توفي في سنة (٧٩٢هـ = ١٣٨٩م)، وكذلك يُعد «الجامي» المتوفى في سنة (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م)، من أبرز العلماء والشعراء في هذا العصر؛ إذ ألف ستة وأربعين كتاباً في مختلف فروع العلم. ثم يأتي «نظام الدين الشامي»، صاحب كتاب «ظفرنامه»، الذي يعد سجلاً لفتوحات «تيمورلنك» .



لوحة من الظفر نامه



جامي - التيجان السبعة

ولم يشهد العهد التيموري ازدهاراً في مناحي الحياة كافة مثلما حدث في عصر «شاه رخ» ؛ الذي يعد من أكثر حكام «إيران» ثقافة وذكاءً ومعرفة، فقد جعل من «هراة» مركزاً ثقافياً لأواسط آسيا، وتبوأ المهندسون والمعماريون والرسامون والشعراء والعلماء مكانة بارزة في بلاده، وأغدق عليهم بالعطايا، وتولى رعايتهم بنفسه، فشهدت البلاد في عصره نهضة حضارية في كل الفنون ومختلف التخصصات، ويعد مسجد «كوهر شاد»^(١٢) من أبرز إنجازات هذا العصر، وظل العمل في بنائه اثني عشر عاماً في الفترة (٨٠٨ - ٨٢٠هـ = ١٤٠٥ - ١٤١٧م)، وقد أقيم تكريماً لزوجته - التي حمل المسجد اسمها - بمدينة «مشهد» . وكذلك بنى المعماري «قوام الدين الشيرازي» مدرسة كبيرة - بتكليف من «شاه رخ» - بمنطقة

الجمهورية الغزنوية

في أفغانستان والبنجاب

[٣٥١ - ٥٨٢هـ = ٩٦٢ - ١١٨٦م]

* النشأة والتكوين:

اعتمد السامانيون على الأتراك في صفوف الجيش، وفي تولي المناصب الكبيرة في «الدولة السامانية»، فعلا شأن الأتراك، وازداد نفوذهم، ويعد «البتكين» الذي ولي منصب صاحب الحجاب للأمير «عبدالله بن نوح» (٣٤٣ - ٣٥٠هـ = ٩٥٤ - ٩٦١م) أبرز الشخصيات التركية في بلاط السامانيين، وبلغ من نفوذه أن خشي الأمير «عبدالله بن نوح» منه على ملكه فأبعده عن العاصمة، وأسند إليه ولاية «خراسان» في عام (٣٤٩هـ = ٩٦١م).



* الوضع الداخلي:

لم يتمكن «البتكين» أول حكام «الدولة الغزنوية» ومؤسسها من ترسيخ دعائم دولته الجديدة، فقد وافاه أجله في سنة (٣٥٢هـ)، بعد عام واحد تقريباً من توليه الحكم، ثم خلفه ابنه «إسحاق»، ثم غلامه «بلكانين» - من بعده - ولكنهما لم يتمكنوا من تحقيق ذلك، فلما

ولما تولى «منصور بن نوح» الإمارة خلفاً لأخيه «عبدالله» الذي توفي سنة (٣٥٠هـ = ٩٦١م)؛ تمرد عليه «البتكين» في «خراسان»، وأرسل جيشاً لمحاربه والقضاء على تمرده، وأسند «خراسان» إلى «أبي الحسين سيمجور»، فتوجه «البتكين» إلى «غزنة» واستولى عليها من حاكمها الساماني، وأسس بها إمارة مستقلة عن السامانيين، ثم جعلها مركز حكمه وعاصمة دولته المناهضة للدولة السامانية. حاول الأمير «منصور» جاهداً أن يقضى على تمرد «البتكين» في غزنة، ويوقف تأسيس دولته المناهضة، لكن جهوده جميعها باءت بالفشل.

ولي «سبكتكين» أمور الدولة سنة (٣٦٦هـ)، تمكن بهيمته العالية وحسن سياسته أن ييسط نفوذه ويوطد دعائم دولته، ويحقق لها ما لم يقدر عليه سابقوه، فعُدَّ المؤسس الفعلي لها.

ويُعد «محمود الغزنوي» - الذي ولي الحكم في الفترة من سنة (٣٨٨هـ) إلى سنة (٤٢١هـ) - من أكبر الشخصيات في التاريخ الإسلامي وأشهرها، إذ قاد الجيوش والحملات والفتوحات من أجل نشر الدين الإسلامي بالهند، ونزل من أعالي «إيران الشرقية» إلى «هندوستان»، ثم واصل جهاده حتى بلغ حدود «كشمير» و«البنجاب»، وغزا «سومنا» ومنها إلى «كجرات»، ثم استولى على بلاد «الغور» في عام (٤٠١هـ = ١٠١٠م)، وأخضع مناطق «ما وراء النهر»، ومدينتي «بخارى» و«سمرقند» لحكمه، فلقبه المؤرخون بلقب «مكسر الأصنام»، كما كان أول من تلقب بلقب السلطان من أمراء المسلمين.

وأضحت مدينة «غزنة» في عهده منارة للعلم، ومقصداً للعلماء، ووفد عليها أشهر أدباء هذا العصر أمثال الشاعر «الفردوسي»، وأصبحت عامرة بالمساجد والحدود والأبنية الخيرية، التي لا تقل بهاءً وجمالاً عن

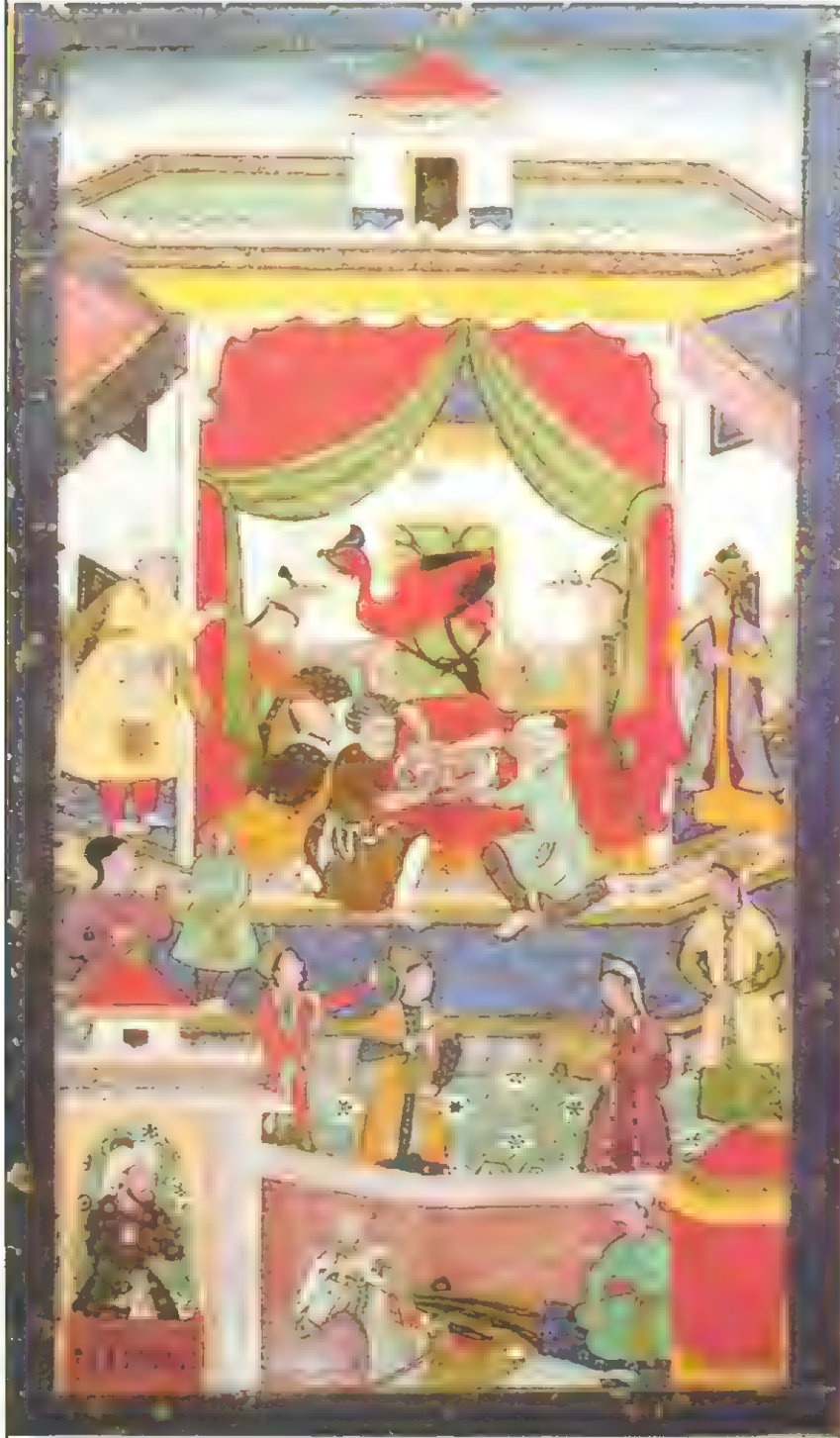
المنشآت الهندية التي اشتهرت بدقة التصميم وجمال العمارة.

وتُوفي السلطان «محمود» في عام (٤٢١هـ = ١٠٣٠م)، بمدينة «غزنة».

وفي سنة (٥٥٦هـ = ١١٦١م)،

(٥٨٢هـ = ١١٨٦م).

أسقط الغوريون «غزنة» وسيطروا عليها، ولم يستطع أحفاد السلطان «محمود الغزنوي» الصمود أمام هجمات الغوريين، ولم يتمكنوا من استعادة عاصمة بلادهم، فسقطت «الدولة الغزنوية» في سنة



* العلاقات الخارجية:

أقام الغزنويون علاقات عديدة مع كل الدول المحيطة والمجاورة ، وبصفة خاصة مع «هندوستان» ، وتجدر الإشارة إلى أن حكم المسلمين لبلاد «الهند» بدأ مع خروج الحملات الغزنوية لفتحها؛ إذ اتخذت هذه الحملات من «لاهور» مقراً لها ، ومركزاً لنشر الدعوة الإسلامية، فلما ورث الغوريون دولة الغزنويين، تولوا سلطنة «دهلي» ، وواصلوا الطريق، ونشروا الدين، وبسطوا نفوذ المسلمين على كل بلاد الهند الشمالية. ولعل فتوحات السلطان «محمود الغزنوي» بالهند قد بلغت مدى لم تبلغه أية قوة إسلامية بعده، فكان له فضل نشر الدعوة، ودخول أعداد كثيرة في دين الله ،

فأعز الله به الإسلام، وأعلى كلمة التوحيد في هذه البلاد.

* المظاهر الحضارية في الدولة الغزنوية:

ضمت أراضى «الدولة الغزنوية» عناصر وأجناساً سكانية متعددة، شملت الأتراك والفرس واليهود والنصارى وغيرهم، واعتمد الغزنويون على الأتراك في بلاطهم، وأكثروا منهم في الجيش، فزاد نفوذهم، كما زاد نفوذ الفرس في جوانب الثقافة والأدب والعلوم والاقتصاد، ونهضت الدولة في هذه المجالات بفضل جهودهم ، ولذا فقد اهتم الغزنويون بإحياء أعيادهم والاحتفال بها ، إلى جانب الاحتفال بأعياد المسلمين كعيدى الفطر والأضحى، على أن هذه الاحتفالات كانت تتوقف في

المناسبات الحزينة التي تمر بالدولة ، مثلما حدث في عيد الأضحى سنة (٣٤١ هـ = ١٠٣٩ م) ، حين ألغى السلطان «مسعود الغزنوي» الاحتفال به، بسبب الهزيمة التي منيت بها الدولة أمام السلاجقة، وكانت المجاملة من الأمور التي حرص عليها الشعب الغزنوي في المناسبات مثل: استقبال وفود الخليفة إلى السلطان وتوديعهم، أو تنصيب السلطان، أو تعيين وزير، أو صاحب منصب كبير، وكان الشعب يتسابق في تقديم الهدايا في هذه المناسبات، كما كان من عاداته ارتداء البياض رمزاً للحزن في مناسبات الحداد.



ومن المؤكد أن السلاطين الغزنويين قد عاشوا حياة مترفة، أنبأتها بها قصورهم الفخمة، ومواكبهم المهيبة، وكذلك مظاهر الزينة والأبهة التي تناقلتها ووصفتها مصادر المؤرخين ومراجعهم، ويتجلى هذا الترف في المواكب السلطانية وحفلات الزواج، ومراسم تولية السلطان أو تنصيب الوزير.

ولم يغفل الغزنويون الترفيه بأنواع التسلية، فكانت المصارعة وحمل الأحجار الثقيلة، والمبارزة، والصيد، من أنواع الرياضة التي اهتم بها أمراء البيت الحاكم، وكان السلطان «مسعود» - قبل أن يلي السلطة - يهتم بهذه الرياضة ويقول: «ينبغي التعود على مثل ذلك؛ حتى لا يعجز المرء إذا قابلته مهام صعب، أو ساعات شداد»،

ولذا كان يبارز الأسود وهو جالس على ظهر فيل، ولا يسمح لأحد بمساعدته في ذلك، وكان الصيد يتم - أحياناً - بواسطة الفهود والكلاب . وكانت التسلية المفضلة عند الشعب الغزنوي هي ركوب السفن في بعض الأنهار.

* النهضة الثقافية في الدولة الغزنوية:

ولعل أبرز ما يميز «الدولة الغزنوية» عن مثيلاتها من الدول المستقلة في شرق العالم الإسلامي هي نهضتها الثقافية، التي ازدهرت على أيدي أمراءها الذين قدروا رجال الأدب ، وعملوا على تشجيعهم والعناية بهم ، فقد كان كل أمير يريد أن يحيط نفسه برجال العلوم والفنون ؛ ليتفوق على أقرانه، وبرزت «غزنة» في أواخر القرن الرابع الهجري كمركز إشعاع كبير في جنوبي غرب «آسيا» ، بفضل تشجيع السلاطين الغزنويين الذين لم يألوا جهداً في سبيل رفع

شأن العلوم والفنون في دولتهم، واستطاع السلطان «محمود الغزنوي» أن يضم إليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون بأمراء البلاد المجاورة ، وزين «غزنة» بأجمل ما حصل عليه من مغانم «الهند»، وأعاد تشييد مسجدها الجامع، وأضاف إليه مدرسة كبيرة ووضع بها مؤلفات وتصانيف نقلها من خزائن الملوك السابقين في العلوم كافة، ليقوم علماء «غزنة» وفقهاؤها بدرسها وتدريسها.

وجدير بالذكر أن السلطان «محمود بن سبكتكين» كان مولعاً بعلم الحديث، ويستمع إلى علمائه، ويستفسر عما يتلونه عليه من أحاديث، وكان يستدعى إلى «غزنة» كل من له سعة في العلم والأدب والشعر، مثل «بديع الزمان الهمذاني» صاحب فن المقامات ، قال عنه «الشعالبي» : «إنه معجزة همذان ، وغرة العصر ، كان ينشد القصيدة إذا سمعها مرة واحدة ،



من مقامات الحريري

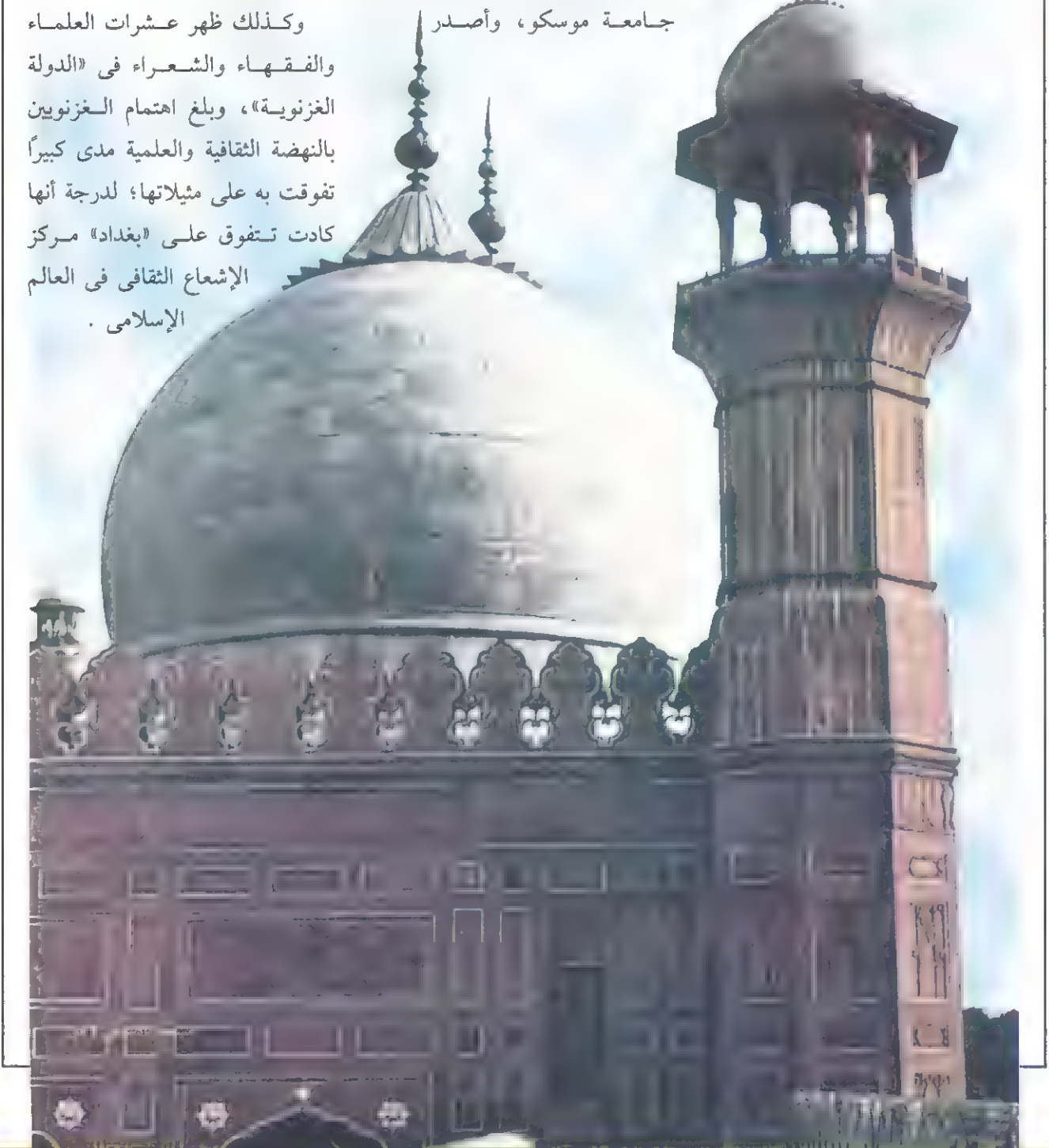


مسجد بادشاهي



ويترجم ما يستمع إليه من الآيات
الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة
إلى الشعر العربي ، فيجمع فيها من
الإبداع والإسراع . ومنهم أبو
ريحان محمد بن أحمد البيروني
(٣٦٢-٤٤٠هـ) الذي يعد من
أعظم رجال الحضارة الإسلامية
وأبرزهم ، وقد نال تقديراً علمياً
كبيراً ، وترجمت كتبه
إلى اللغات

الأوربية، وسمت روسيا جامعة
حديثة باسمه وأقيم له تمثال في
جامعة موسكو، وأصدر
وكذلك ظهر عشرات العلماء
والفقهاء والشعراء في «الدولة
الغزنوية»، وبلغ اهتمام الغزنويين
بالنهضة الثقافية والعلمية مدى كبيراً
تفوقت به على مثيلاتها؛ لدرجة أنها
كادت تتفوق على «بغداد» مركز
الإشعاع الثقافي في العالم
الإسلامي .



الدولة الغورية

في أفغانستان وهندوستان

[٥٤٣ - ٦١٢ هـ = ١١٤٨ - ١٢١٥ م]

* النشأة والتكوين:

كان الغوريون أسرة صغيرة
تحكم «ولاية الغور» التي تقع بين
«هراة» و«غزنة»، وكانت «قلعة
فيروزكوه» مقر حكمهم ، ودأبوا
على شن الغارات على رعايا
«الدولة الغزنوية» ، واتخذوا من
وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها
معصماً يقيهم من بطش السلطان
«محمود الغزنوي»، حين أراد
معاقتهم بعد أن باتوا خطراً جسيماً
يهدد دولته . ولكن السلطان
«محمود الغزنوي» تمكن من
استمالة «محمد بن سوري» - أحد
رؤسائهم - في عام (٤٠١هـ =
١٠١٠م) ، ثم عين أولاده في
حكم «فيروزكوه» و«باميان» ، ومن
ثم تصاهر الغوريون مع الغزنويين،
واتحدوا مع ملوك «غزنة» . فلما
قتل «بهرامشاه الغزنوي» «قطب
الدين محمود» والد زوجته
الغورية، نهض أخوه «سيف الدين
سوري» مطالباً بشأه، واحتل
«غزنة» في عام (٥٤٣هـ =
١١٤٨م) .

ولما تمكن «بهرامشاه الغزنوي»
من قتل «سيف الدين سوري» في

* العلاقات الخارجية :

أقام «الغوريون» دولتهم على
أنقاض «الدولة الغزنوية» بعد
قضائهم عليها، ثم دخلوا حروباً
كثيرة مع بلاد «الهند» حين فشلوا
في توسيع سلطانهم على حساب
جيرانهم «الخوارزميين» و«الخطا»،
ولكن الخوارزميين لم يهملوهم،
وقضوا على دولتهم ، وما من شك
في أن الغوريين يرجع إليهم الفضل
في توطيد دعائم الحكم الإسلامي
في البلاد الشمالية للهند . فإذا كان
«آل سبكتكين» هم الذين فتحوا
«الهند» ، فإن الغوريين هم الذين
ثبتوا الحكم الإسلامي بها .

* مظاهر الحضارة في الدولة الغورية:

كانت مدينة «فيروزكوه» أشهر
مدن الغوريين ، ومركز حضارتهم،
وقصبة ملكهم . وكان السلطان
«غياث الدين محمد» الذي توفي
في عام (٥٩٩هـ = ١٢٠٢م) من
أعدل وأعظم حكام «الدولة
الغورية»، وكان شافعي المذهب
ومع ذلك لم يحمل الناس على
اتباع مذهبه ، وقرب إليه الشعراء
والعلماء، ونبغ منهم الكثيرون في
عهده .

عام (٥٤٣هـ = ١١٤٨م) ، قام
«علاء الدين حسين» (جهانسوز)
الأخ الثاني لقطب الدين بالهجوم
على «غزنة»، ثم دخلها ونهبها،
ولكنه وقع أسيراً - بعد فترة
قصيرة- في قبضة السلطان «سنجر
السلجوقي»، وتوفي في عام
(٥٥٦هـ = ١١٦١م)، فخلفه
«غياث الدين محمد»، وأقيمت له
الخطبة في «غزنة»، ولكن الغز
طمعوا في «غزنة» بعد وفاة «علاء
الدين» واستولوا عليها، وظلت في
أيديهم مدة خمس عشرة سنة، ثم
ألق «غياث الدين محمد» أمير
الغور الهزيمة بالغز وطردهم من
«غزنة»، إلا أنه لم يكتف بذلك،
وعمل على استئصال شأفة «آل
سبكتكين»، وتمكن منهم ، وضم
أملاكهم إلى دولته، ثم اتجهت
فتوحات «الغور» إلى «الهند» لعدم
قدرتهم على الزحف إلى أواسط
«آسيا» حيث توجد «الدولة
الخوارزمية»، ودولة الخطا، اللتان
وقفتا حصناً منيعاً أمام راغبي
التوسع في هذه المناطق، ثم جاءت
نهاية «الدولة الغورية» على أيدي
الخوارزميين في عام (٦١٢هـ =
١٢١٥م) .

سلطنة دلهي الإسلامية

[في عهد الملوك المماليك]

[٦٠٢ - ٦٨٩ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٩٠ م]

* النشأة والتكوين:

شهد العالم الإسلامي فترة من تاريخه، تبوأ فيها الأرقاء والعبيد عرش البلاد، وتقاليد الحكم، ومناصب الدولة المهمة، وكان هؤلاء العبيد من الأتراك الذين جلبهم السلاطين للخدمة في صفوف الجيش، فتدرجوا في مناصبه حتى بلغوا المناصب القيادية المهمة، فزاد نفوذهم، وعلا شأنهم، وبناتوا قوة ضاربة تتحكم في سير الأمور وتطورها؛ حتى إن أحدهم انتزع الملك لنفسه حين توفي أحد السلاطين، ولم يكن له وارث. وأقام المماليك دولتهم بالهند عقب زوال دولة الغور، وظلت دولتهم قائمة مدة أربعة وثمانين عاماً في الفترة من سنة (٦٠٢ هـ = ١٢٠٦ م) إلى سنة (٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م).



* الوضع الداخلي:

كان «قطب الدين أيبك» الذي حكم من سنة (٦٠٢ هـ = ١٢٠٦ م) إلى سنة (٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م)، أول سلاطين المماليك في «الهند»، واشتهر بحبه للعدل، وإقراره السلام والأمن في نواحي بلاده، وبنى مسجدين كبيرين، أحدهما بدلهي والآخر بأجمبر. وتوفي هذا

السلطان في عام (٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م)، ثم خلفه ابنه «آرام شاه»، وعجز عن تسيير أمور البلاد وإدارتها، فاستدعى رجال الدولة والبلاط «ألتمش» وطلبوا منه أن يلى أمور السلطنة، فوافق على مطلبهم وطرده «آرام شاه» من السلطنة، وترجع على عرشها في عام (٦٠٧ هـ = ١٢١١ م).

يُعدّ «شمس الدين ألتمش» المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في «الهند»، وهو مملوكى اشتراه «قطب الدين أيبك» من «غزنة»، وحمله معه إلى «الهند»، ثم جعله رئيساً لحرسه، ثم أسند إليه حكم ولايات «الهند»، فتعرض «شمس الدين» لمحاولات كثيرة للإطاحة به، وما كاد يتخلص منها حتى ظهر له

خطر المغول، وألحقوا بدياره الخراب والدمار، ولكنهم لم يتحملوا حرارة جو بلاده، واتجهوا صوب الغرب ثانية، فنجت البلاد من شرورهم.

لم ير «ألتمش» في أبنائه الذكور مَنْ يصلح للحكم من بعده، فأوصى به لابنته «رضية»، ولكن رجال البلاط عهدوا بالملك عقب وفاته إلى الأمير «ركن الدين فيروز شاه»، إلا أنه لم يهنأ بالملك بسبب الفتن والاضطرابات التي عمت أنحاء البلاد، وكان نتيجة ذلك أن قُتل هو وأمه، فألت أمور الحكم إلى السلطنة «رضية» في عام (٦٤٣ هـ = ١٢٣٦ م).

يُعد السلطان «بلبان» (بلبن) الذي حكم في الفترة من عام (٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م) إلى عام (٦٨٦ هـ = ١٢٨٧ م)، من أقوى سلاطين «الهند» وأعظمها في تاريخها الوسيط، إذ واجه المغول الذين عادوا إلى تهديد «الهند» ثانية، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى بلاده، ثم قضى على «الهندوس» الذين قطعوا الطريق بين «دهلي» و«البنغال»، وأقر الأمن والنظام في ربوع دولته.

عهد «بلبان» - حين شعر بدنو أجله - بالحكم إلى ابنه «بغراخان»، إلا أن ابنه رفض ذلك، فعهد به

إلى حفيده «كيخسرو بن بغراخان»، فتولى أمور البلاد، ولكنه كان ضعيفاً لا يقوى على تسيير أمور الحكم بمفرده، فأسندها إلى «نظام الدين» الذي اعتمد على خواصه والمقربين إليه في إدارة شئون البلاد، فاستبدوا بها، وحاول «بغراخان» أن يتخلص من «نظام الدين» ولكن الترك لم يكتفوا من ذلك، وعزلوا ابنه «كيخسرو» وولوا «كيقباد» أحد أطفاله الصغار، فتصدى لهم «الخلجيون» بقيادة زعيمهم «فيروز شاه»، وقضوا عليهم، فزال حكم المماليك بالهند على أيديهم.



* العلاقات الخارجية :

اتسمت العلاقة الخارجية لسلطنة «دهلي» الإسلامية في عهد الملوك المماليك (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) بأنها كانت علاقة عسكرية في المقام الأول؛ إذ عمد سلاطينها إلى توطيد ملكهم بعد زوال دولة الغور على أيديهم. يضاف إلى ذلك الخطر الذي واجهه هؤلاء السلاطين وبلادهم على أيدي المغول، الذين طمعوا في ملك بلا حدود، والهندوس الذين سعوا إلى إسقاط حكمهم والتوسع على حسابهم، واستطاع «بلبان» - كما مر - أن يتصدى للغزاة والطامعين، وحفظ لبلاده استقرارها وهدوءها.

ثم تمكن الخلجيون من إسقاط هذا الحكم، وإقامة آخر باسم جديد لدولة جديدة تحمل اسمهم.

* مظاهر الحضارة:

نعمت «دهلي» بالاهتمام ببعض مظاهر الحضارة في عهد الملوك المماليك، فبنى «قطب الدين أيبك» مدرسة كبيرة إلى جانب مسجده الشهير الذي بدأ بناءه في عام (١٩١م)، ثم أكمله له «ألتمش» في عام (١٢٣٠م)، ولاتزال منارة هذا المسجد - التي كانت مكونة من سبعة طوابق - قائمة حتى الآن، ولم يتبق من طوابقها سوى خمسة فقط.

كما قام «ألتمش» بتشجيع العلوم والآداب في السلطنة، وأنفق أموالاً كثيرة في نسخ أعداد كثيرة من القرآن الكريم لتكون في متناول أفراد شعبه، وأسس العديد من المدارس، وزين بلاطه بالعلماء

والشعراء، وأولى الفن المعماري عناية فائقة، فأنشأ مسجد «أيبك» في «دهلي»، وشيّد آخر في «آجمير»، وجعل عاصمته أحد مراكز العلوم والآداب المهمة.

منذة جامع قطب الدين - دهلي - الهند

الخلجيون (الأفغانيون)

[٦٨٩ - ٧٢٠هـ = ١٢٩٠ - ١٣٢٠م]

* النشأة والتكوين:

يرجع الفضل في ظهور «الخلجيين» في «بلاد الهند» إلى الأمير «قطب الدين أيبك»، الذي ولي «الهند» نيابة عن سلطان «الغور»، فحرص على توسيع رقعة ولايته بها، وأسند أمرها إلى قائده «محمد بن بختيار الخلجي»، الذي قام بدوره على خير وجه،



مدرسة قطب الدين في دهلي - الهند
مدرسة محمد بن بختيار الخلجي في دهلي - الهند

* الوضع الداخلي:

عمد سلاطين «دولة المماليك» بالهند إلى القضاء على حركات الاستقلال التي تزعمها «الخلجيون» للانفصال عنهم، والاستقلال بما تحت أيديهم، فتصدى «الخلجيون» لهم، وعولوا على تغيير نظام الحكم في «دهلي»؛ حيث استبد الأتراك بالأمر فيها، ثم جمعوا قواتهم تحت قيادة زعيمهم

توطيد نفوذهم بالأقاليم الهندية التي استولوا عليها، فلما قامت «دولة المماليك» بالهند، وولى «شمس الدين ألتمش» أمور السلطنة بدهلي، قامت في وجهه المشاكل والاضطرابات الداخلية التي هدفت إلى الإطاحة بحكمه، ثم أعقبها وفاة «قطب الدين أيبك»، فانتفض «الخلجيون» هذه الفرصة، وسيطروا على «بهار» و«البنغال».

واستولى على «بندنديوري» عاصمة «إقليم بهار» من ملوك أسرة «بالا»، ثم استولى على الإقليم كله، وقضى على «البوذية» التي كانت منتشرة هناك، وحطم معابدها وأصنامها، ونشر الدين الإسلامي في ربوع هذه المملكة، ثم استولى على عاصمة إقليم «البنغال»، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغوري. حرص خلفاء هذا القائد على

التخليقيون

(بنو تغلق شاه)

[٧٢٠ - ٨١٥ هـ = ١٣٢٠ - ١٤١٢ م]

* النشأة والتكوين:

استمال «تغلق شاه» جنود شمالى غرب «الهند» إلى صفه، ثم قادهم إلى «دهلى»، وتمرد على السلطان «خسرو شاه ناصر الدين» آخر حكام «الدولة الخلاجية»، وفقد عدد كبير من جيش «خسرو شاه»، ثم التقى الفريقان في «ديوبالپور»، وخسر الخلاجيون المعركة، وفروا منها، تاركين خلفهم الأسلحة والخيول والفيلة والأموال والمعدات، فدخل «تغلق» العاصمة «دهلى» دون معارضة، ولَّى الناس نداءه للدخول في طاعته، بسبب كرههم «الهند».



إلى إسقاط هذه الأسرة الخلاجية انتقامًا منها، لأنها كانت السبب في تدمير معابد البوذيين، وتخطيم أصنامهم.

* مظاهر الحضارة:

تأثر الخلاجيون بالبيئة الأفغانية التي انتشر بها التصوف على يد رجل فارسي يدعى «سيدى مولى»، الذى فر إلى «الهند» عقب الغزو المغولى لبلاد فارس، فالتف حوله الناس من مختلف الطبقات، ووفدوا عليه من كل مكان، فقويت شوكته، وتدخل في شئون الحكم، ودبر مؤامرة للإطاحة بجلال الدين الخلاجى، ولكن «جلال الدين» أحبط هذه المؤامرة، ثم خلفه السلطان «مبارك شاه» فى عام (٧١٦ هـ = ١٣١٦ م)، فى الوقت الذى كانت البلاد تمر فيه بظروف صعبة، وتحتاج إلى حكومة قوية؛ تنقذها من هاوية الأزمات التى تردت فيها، فعمل على إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وأصلح شئونها، وأغدق على المحتاجين من رعاياه، ومنح الجنود المكافآت، وخفف عن الناس عبء الضرائب، وشجع التجارة، وألغى القوانين التى تحدد أرباحها، فانتعشت وراجت، وكان لذلك أثره المباشر فى تنمية موارد البلاد وازدهار حضارتها، رغم الفترة القصيرة التى قضاها «مبارك شاه» فى الحكم، حيث قُتل فى عام (٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م).



* العلاقات الخارجية:

اتسمت العلاقات الخارجية للخلاجيين بالعداء مع كل القوى والممالك المحيطة بهم تقريبًا، فقد وقفوا فى وجه المغول وصدوهم حين هاجموا بلادهم، وأرادوا اجتياحها، كما وقفوا بالمرصاد لمملكة الكجرات و«الممالك الراجبوتينية»، وممالك «شيتور» و«زانميهور»؛ حيث كانت تقف من «دهلى»، موقفًا عدائيًا، فضلًا عن موقف بلدان سلطنة «دهلى»، مثل «يوجين» وغيرها؛ حيث كانت تنتظر الفرصة المناسبة للاستقلال عن مركز الحكم فى «دهلى».

جاءت نهاية «الخلاجيين» على أيدى «الكجراتيين» البوذيين بقيادة زعيمهم «خسرو شاه» الذى سعى

«فيروز»، وأحدثوا انقلابًا فى «دهلى»، وأطاحوا بالسلطان الطفل، وأعلنوا «فيروز» سلطانًا عليهم، ولقبوه بجلال الدين، وذلك فى سنة (٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م)، فكان أول السلاطين الخلاجيين الذين استمر حكمهم ثلاثين عامًا تقريبًا، حتى سنة (٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م).

يعد «علاء الدين الخلاجى»، الذى حكم فى الفترة من سنة (٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م) إلى سنة (٧١٥ هـ = ١٣١٥ م)، من أعظم سلاطين عصره، حيث كان محاربًا شجاعًا، وحاكمًا عادلًا، وكان أول من قاد الجيوش فاتحًا شبه القارة الهندية، رافعًا راية الجهاد تحت لواء الإسلام.



* الوضع الداخلي:

قامت «دولة التغلقين» على أنقاض «دولة الخلاجيين» ببلاد «الهند»، وتولى «تغلق شاه الأول» الحكم في عام (٧٢٠هـ = ١٣٢٠م)، واستمر فيه حتى سنة (٧٢٥هـ = ١٣٢٤م)، وعرف باسم السلطان «غياث الدين تغلق». ويرجع أصله إلى الجغتائيين الأتراك، وقد قدم في مطلع شبابه إلى «بلاد السند»؛ لخدمة بعض التجار في عهد السلطان «علاء الدين»، ثم دخل في خدمة «أولو خان» أمير «السند» آنذاك، وتدرج في الفروسية حتى احتل وظيفة أمير الخيل، فلما ولي «قطب الدين» عهد بهذه الإمارة

إلى ابنه «محمد تغلق»، فشغل هذا المنصب إلى عهد «خسرو شاه»، أعلن الثورة، ودخل «دهلي»، ودارت بينه وبين «خسرو شاه» عدة معارك، تمكن - في نهايتها - من قتله، والانتصار على جيشه، ثم دخل القصر الملكي وجلس على سرير الملك.

لم تستقر أمور هذه السلطنة في عهد «بنى تغلق»؛ حيث ظهرت بها المؤامرات، واشتعلت الفتنة لانتزاع كرسي الحكم، وثار «محمد بن تغلق» على أبيه في سنة (٧٢٥هـ = ١٣٢٥م)، حين أعلن هذا الأب استيائه من تصرفات ابنه، ومن استكثاره شراء الممالك، ومبالغته

في بذل العطايا، ومنح الهبات، فدبر الابن حيلة تمكن بواسطتها من قتل أبيه.

كان «محمد بن تغلق» غريب الأطوار؛ حيث كان محبا للإنفاق والإغداق وبذل الهبات والعطايا، وفي الوقت نفسه يعمل على إراقة الدماء، ويسعد برؤيتها، فساءت الأحوال في عهده، ونقل عاصمته إلى مدينة «ديوكر» التي أطلق عليها اسم: «دولت آباد» لكي يأمن خطر المغول، وأجبر سكان «دهلي» على الانتقال إلى العاصمة الجديدة، فاشتدت الأمور سوءاً، وقامت الثورات في وجهه، ونشطت الحركات الاستقلالية في عهده، فعدل عن الاستقرار في هذه العاصمة الجديدة، ولكن الخراب والدمار قد لحقا بدهلي نتيجة هجرها، ولم يتمكن الناس من العودة إليها، فبنى لهم مدينة جديدة بالقرب منها.

لم يكن للسلطان «محمد بن تغلق» وريث للحكم حين وفاته، فورثه ابن عمه «فيروز تغلق» في عام (٧٥٢هـ = ١٣٥١م)، وحكم في الناس بالعدل، وسار بينهم سيرة حسنة، ثم خلفه حفيده «غياث الدين تغلق شاه الثاني» في عام (٧٩٠هـ = ١٣٨٨م)، ونشطت في عهده الحركات الاستقلالية، وظلت البلاد في هذا الوضع المضطرب حتى وفاة آخر سلاطين «آل تغلق» في عام (٨١٥هـ = ١٤١٢م)،

فاجتمع أعيان «دهلي»، ونصبوا «دولت خان» حاكمة على البلاد، ثم تعرضت «دهلي» للغزو التيموري الذي قضى على مظاهر الحضارة فيها، وأهلك الحرث والنسل، ولكن هذه الحضارة عادت مظهرها ثانية إلى هذه السلطنة في عهد «ظهير الدين محمد بابر» فاتح «الهندوستان»، الذي ينتهي نسبه إلى «تيمورلنك» من ناحية أبيه، وإلى «چنكيزخان» من ناحية أمه.

* العلاقات الخارجية:

لاشك أن السياسة التعسفية التي انتهجها «خسرو شاه» في عداثة

السافر للمسلمين، وتحيزه لبني جنسه، هي التي دفعت المسلمين إلى الفرار من صفوفه والانضمام إلى صفوف «تغلق شاه» مؤسس «الدولة التغلقية». وتعرضت أسرة «آل تغلق» للاضطرابات والمشاكل، وقامت بدولتهم عدة حركات انفصالية، واقتحم زعيم القبائل الجغتائية المغولي حدود بلادهم في سنة (٧٢٧هـ = ١٣٢٧م)، واستولى على «لغان» و«الملتان»، وسلك طريقاً إلى «دهلي» العاصمة، فأسرع التغلقيون إلى كسب ود المغول ومهادنتهم،

فانسحبوا من بلادهم بعد أن ألحقوا بها الضرر. حاول «محمد تغلق» غزو بلاد «الصين» من أجل الوصول إلى «ولايات الهملايا» العليا؛ لكي ينشر الدين الإسلامي في ربوع هذه المناطق، أو - كما يدعى بعض المؤرخين - للاستيلاء على الكنوز التي كانت تزخر بها «الصين» في هذا الوقت. ولاشك أن «آل تغلق» قد عانوا كثيراً في سبيل الحفاظ على ملكهم؛ حيث كانت الأخطار محدقة بهم في الداخل والخارج.



* مظاهر الحضارة:

شجع «تغلق شاه» رعيته على تعمير الأرض والاهتمام بالزراعة، فشق الترع والقنوات، وأصلح طرق الري، وخفف الضريبة على الأراضي الزراعية. وكان «محمد ابن تغلق» من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وله منشورات ومنظومات رفيعة المستوى باللغتين العربية والفارسية، وكذلك كان

يجيد الفلسفة والحكمة والمنطق، كما برع في الطب، وعالج الناس بنفسه، وأشرف على ملاجئ العجزة التي أقامها لهم، وأنشأ مدينة «دولت آباد» لكي تكون عاصمة لبلاده، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، ووفد عليه الكثيرون من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وعمل على رعايتهم، ونهج حكام أسرة «آل تغلق» سياسة في استقطاب الأدباء والعلماء.

وجملة القول أن سلاطين دهلي عنوا بتشجيع الثقافة الإسلامية، وأنفق السلطان المملوكي «الشمش» أموالاً طائلة في نسخ أعداد كثيرة من القرآن الكريم؛ للاستفادة منها، وأسس العديد من المدارس، وزين بلاطه بالشعراء والأدباء. وحرص السلطان «بلبن» على عقد المناظرات بين الشعراء والأدباء والعلماء في بلاطه. وضم بلاط



ديوان خاص دهلي

قط منار - دهلي



السلطان «علاء الدين» الكثير من العلماء والأدباء، وشهد عهده الكثير من الفلاسفة والحكماء والشعراء والمؤرخين والمترجمين والأطباء والفلكيين، ولم يجتمع على باب أحد سلاطين «دهلي» من رجال العلم والفقه والأدب ما اجتمع على باب «علاء الدين»، فازدهرت الحياة الثقافية في عهده، وتميزت بإنتاج أدبي غزير ومتنوع. وكان «أمير خسرو» - بلا جدال - أعظم شعراء عصره، وتعددت مواهبه، وبلغت شهرته الآفاق، فحظى بتقدير الناس ممن عاصروه. نبغ عدد من المؤرخين في العهد «الخلجي»، منهم «أمير أرسلان كولاہی»، و«كبير الدين بن تاج الدين العراقي»، كما كان «أمير خسرو»، و«ضياء الدين بارانی»

من مؤرخي ذلك العصر، وقد عاصر «السلطان علاء الدين»، ولهما مصنفات أدبية وتاريخية يشار إليها بالبنان، وقد وضع «بارانی» عدة مؤلفات مهمة منها: «تاريخ فيروز شاہی»، وكتاب «السنة المحمدية»، وكتاب «مآثر السادة»، و«تاريخ البرامكة»، وله كتاب عن «الأحكام السلطانية»؛ يشمل القيم والمبادئ والقوانين والسياسات والنظم التي يجب على الحكومة الإسلامية اتباعها، ويرجعها كلها إلى الشريعة الإسلامية. ويلاحظ أن الأدب الديني قد ازدهر في هذا العصر، وكتب علماء الدين عن أسانذتهم، وترجموا لهم، وأبرزوا فضلهم، وتحدثوا عن تراثهم، فعكست هذه الترجمات مظاهر الحياة الاجتماعية، والاتجاهات الثقافية في هذا العصر، فضلاً عن أنها مصدر غني للمعلومات عن هذه الفترة التاريخية.



وفى القرن الرابع عشر الميلادى اشتملت مؤلفات الكتّاب الهنود على أعمال ثرية وشعرية باللغة السنسكريتية؛ تضمنت الفولكلور وقصص الأبطال، والروايات الأسطورية للمالك والولايات الهندية، ومما لاشك فيه أن قيام الدولة الإسلامية فى «الهند» و«البنغال» قد أثر تأثيراً ملحوظاً فى تطور الأدب السنسكريتى والبنغالى، حيث فضل الحكام والسلاطين اللغتين العربية والفارسية، ثم فقدت اللغة السنسكريتية أهميتها، واستعاضت عنها «بلاد الهند» باللغات المحلية التى عبرت بها شعوبها عن آدابها وثقافتها.

ظلت الحياة الثقافية فى «الهند»

مزدهرة فى عهد «بنى تغلق»، ووفد على السلطان «محمد بن تغلق» الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة، فقد كان هذا السلطان أديباً وشاعراً، كما كان فيلسوفاً وطبيباً بارعاً. ولم يكن «فيروز شاه» أقل منه اهتماماً بالعلم وأهله، إذ أسس ثلاثين مدرسة لعلوم الدين واللغة والتاريخ والحكمة والرياضيات والفلك والطب، وجلب العلماء المسلمين إلى السلطنة للتدريس بهذه المدارس، وعنى بدراسات «الهند»

وعلموها القديمة للاستفادة منها . وقد لاحظ «ابن بطوطة» فى رحلاته ببلاد «الهند» كثرة المدارس، وذكر أنه كانت هناك مدارس للصبية وأخرى للفتيات، وأوضح أن النساء بالهند كن يقبلن على التعليم باهتمام بالغ وخصوصاً العلوم الدينية، وقد وفد «ابن بطوطة» على بلاد «الهند» فى عام (٧٣٤هـ = ١٣٣٣م)، واتصل بالسلطان «محمد بن تغلق»، وتولى منصب القضاء فى دولته، وأقام بها مدة ثماني سنوات، ووصف بلاد «الهند» ونظمها وسياسة حكامها، وطرق إدارتها، وأحوال المعيشة، ومعايش الناس فيها. وأنشأ «فيروز شاه» المدرسة «الفيروزشاهية»، وعنى بعمارتها، وأحاطها بالحدائق الغناء،

دهلى - مدفن همايونى



وجعلها مقصد العلماء وطلاب العلم من كل مكان، فكان من أساتذتها «جلال الدين الرومى» الذى قام بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه بها، ومارس الوعظ والتدريس، وبرع فى نظم الشعر، فأقبل عليه التلاميذ من كل مكان، وكانت آخر وصاياه لتلاميذه وصيته التى قال فيها:

«أوصيكم بتقوى الله فى السر والعلانية، وقلة النوم والطعام والكلام، وهجران المعاصى والآثام، ومواظبة الصيام، ودوام القيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء والعموم، ومصاحبة الصالحين والكرام . فإن خير الناس من ينفع الناس، وخير الكلام ما قل ودل».

شهدت «الهند» نهضة علمية كبيرة، فانتشرت بها المدارس، وتزايدت أعداد طلاب العلم والمشتغلين به، وأصبح للكتاب أهمية كبرى فى تلبية حاجات الأساتذة والطلاب، وضمت المدارس والجامعات مكتبات ضخمة، تضم أعداداً كبيرة من الكتب . فلما فتح العرب ثم الغزنويون بلاد «الهند»، وانتشر الإسلام بها؛ ازدادت الرغبة فى دراسة علوم المسلمين والعرب وحضارتهم، وأقبل الهنود المسلمون على قراءة الكتب الإسلامية، وأهملوا الكتب الهندوسية والبوذية، فحل الكتاب الإسلامى محل الكتاب الهندى فى سلطنة «دهلى» .

كان الهنود يتناقلون آدابهم

شفاهاً، وأدى ذلك إلى ضياع معظمها، كما أدت الحروب الكثيرة التى شهدتها بلاد «الهند» إلى ضياع الكثير من كتبها، فلما دخل المسلمون «الهند» طوروها الفكر والثقافة بها، وجلبوا إليها الورق من «الصين» عن طريق «آسيا الوسطى»، فلم تعد هناك صعوبة أمام المؤلفين والكتّاب فى تصنيف كتبهم، وساهم ذلك مساهمة فعالة فى نمو العلوم والثقافة بالهند.

امتزج التراث الفارسى بالثقافة العربية بعد أن فتح العرب بلاد فارس، واتخذت الثقافة الفارسية ثوباً إسلامياً، فتأثرت بذلك بلاد «الهند»، وامتزجت الثقافة الفارسية بالثقافة الهندية، فتتج عن

ذلك «اللغة الأوردية» التي ترمز إلى التوفيق بين أنواع الحضارات الإسلامية والفارسية والهندية، ولعل أبرز ما يميز الثقافة الهندية أنها درست وفهمت طبع الإنسان وعلاقاته مع غيره من موجودات الكون، ومع الكون نفسه حق الفهم، وقامت هذه الثقافة على حب العطاء، وقد قال حكماء «الهند» موعظة جاء فيها : «قم بواجبك ولا تنتظر ثواباً أو صلة، لأن القيام بالواجب هو خير ما تتقرب به إلى الله؛ لأن الرجال الأخيار العظماء لا تهتم بحقوقهم بل واجباتهم».

لقد تطلّع العرب منذ اتصالهم بالهند عن طريق الفتح والتجارة إلى الاستفادة من علوم «الهند» وآدابها، ولكن ذلك لم يتم إلا في العصر

العباسي، حين تطلع كبار رجال الدولة العباسية إلى تقوية الصلة بحضارات الأعاجم، وبدعوا بترجمة أهم الكتب الهندية إلى الفارسية ومنها إلى العربية، ثم أخذ العرب علم الحساب وعلوم الرياضيات عامة من الهنود، وأخذوا عنهم التقييم المعروف لدينا اليوم [١ - ٢ - ٣ - ٤] .

وازهت علوم الطب والرياضيات في بلاد «الهند»، فلما قويت الصلة بين العباسيين والهنود، جلب العباسيون الأطباء الهنود لعلاجهم، فكان الطبيب الهندي يعالج الخلفاء وكبار رجال الدولة، وكان الناس يقبلون على هؤلاء الأطباء من كل مكان طلباً للتداوى. استفاد المسلمون من آداب

«الهند»، وترجموا كتاب «ألف ليلة وليلة» وغيره من الكتب إلى الفارسية ومنها إلى العربية، فانتقلت بعض العلوم الهندية إلى الدولة الإسلامية، وأثرت في الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، ومنح الخليفة «هارون الرشيد» - الشاعر «أبان ابن عبد الحميد اللاحق» - جائزة قدرها مائة ألف درهم على نظمه قصة «كليلة ودمنة». وقد نشأ «يحيى بن خالد البرمكي» وزير «الرشيد» في «كشمير»، وتعلم بها، ودرس علوم النجوم والطب والحكمة، وهو الذي جلب من «الهند» إلى «بغداد» كبار العلماء والأطباء أمثال : «بهلة»، و«سنكه»، و«باديكر»، و«قبرقل»، و«سندباد». واستعان «يحيى بن



صفحات من كليلة ودمنة



خالد البرمكي» و«جعفر بن يحيى البرمكي»، و«إسحاق بن سليمان» بالهنود في مجال الطب، وفي حركة الترجمة، فترجم كتاب «سيرك» في الطب إلى الفارسية، ثم نقله «عبدالله بن علي» إلى العربية، وترجم «منكه» كتاب «سرد»، كما ترجم كتاب «أسماء عقاير الهند»، ونقل «ابن دهن» كتاب «مختصر الهند في العقاير» إلى العربية، كما نقل كتاب «استنكر الجامع».

* الديانات والمعتقدات في سلطنة دهلي :

تعددت ديانات «الهند»، فضمت «الهندوسية» و«البرهمية» و«البوذية» إلى جانب الإسلام . أما «الهندوسية» فقد وفدت على «الهند» عن طريق الآريين في سنة (١٥٠٠ ق.م)، ثم دخلتها وطوّرتها عقائد إيرانية، فباتت ديانة

القرن السادس قبل الميلاد، وتوفي في سنة (٤٨٧ ق.م) عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وقد نشأ في بيت عز وثراء، فلما بلغ مبلغ الشباب تأمل في عجائب الكون ومتغيرات الطبيعة، ونظر إلى أحوال الناس وطبائعهم، وأيقن أن الموت نهاية حتمية لكل الكائنات، فأعرض عن مباحج الدنيا، وتحول إلى الزهد والتصوف، واعتزل الناس سبعة أعوام كاملة في غابة يعيش فيها مع تأملاته، ثم عاد إلى وديان «نهر الكنج» وظل ينتقل بين الناس خمساً وأربعين سنة، ينشر بينهم رسالته، وآمن بدعوته الملايين في «الهند» وخارجها، وخلاصة هذه الدعوة التي عمل على نشرها، أن الشر والألم لا ينفصلان عن عالم الوجود، والنجاة أن يحرر الإنسان نفسه بمراقبتها من الوقوع في الجهل الذي يولد الشهوات، وعليه الاعتصام من الذنوب، وبذل الصدقة، وفعل أعمال الخير، إلى جانب التفكير والتأمل. ثم جاء الإسلام فحرر «الهند» من هذه العقائد التي تكلف الإنسان ما لا يطيق من الزهد والتقشف، وتمنع الناس من العمل والإنتاج، فالإسلام يدعو إلى الوسطية، فهو دين عمل وعبادة، ولا تمنع العبادة المسلم من العمل، فالمسلم يعمل وفي الوقت نفسه يؤدي ما عليه من فرائض وتعاليم إسلامية.

إمبراطورية المغول في الهند

[٩٣٢ - ١٢٧٥هـ = ١٥٢٦ - ١٨٥٨م]

* النشأة والتكوين:

ترجع نشأة المغول إلى «عمر شيخ» الذى تولى إمارة «فرغانة»، ثم دخل فى حروب طويلة مع جيرانه وأصهاره المغول، وإخوته الأتراك، لتوسيع أملاكه، ثم توفى فى عام (٨٩٩هـ = ١٤٩٣م)، نتيجة سقوطه من فوق حصن له، وخلفه ابنه «ظهير الدين محمد بابر»، وكان عمره اثنتى عشرة سنة آنذاك، وحكم سلاطين الإمبراطورية المغولية «الهند» نحو ثلاثة قرون.

* الوضع الداخلى:

ولد «ظهير الدين بابر» فى عام (٨٨٨هـ = ١٤٨٢م) بإمارة «فرغانة» التى كان يحكمها والده، ثم أخرجه منها «الأريك» و«الشيانيون»، فاتجه إلى «أفغانستان»، واستولى على «كابل» فى عام (٩١٠هـ = ١٥٠٤م)، ثم استولى على «قندهار» فى عام (٩١٣هـ = ١٥٠٧م)، ومن ثم عقد العزم على غزو «هندوستان»، والاستيلاء عليها، وأعد العدة لذلك، ثم خرج بقواته وجيوشه، وبصحبه قاداته الأتراك الذين أطلق عليهم اسم



الامبراطور بابر يشرف بنفسه على تنسيق الحداق

للاستيلاء على «أكره»، فاستولى عليها، وعلى كنوزها الثمينة التى كانت تضم جوهرة «كوه نور» أثمن جوهرة فى العالم، فأثار ذلك ملوك الهندوس، فتحالفوا ضده، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم، فى معركة «رانا سنك»، وأسس «بابر» دولته، واهتم بالإصلاحات الداخلية فيها.

خلف «ناصر الدين هُمَايون» أباه «ظهير الدين بابر» فى التاسع من جمادى الأولى عام (٩٣٧هـ = ١٥٣٠م)، وكان عمره آنذاك تسعة عشرة عامًا، فواجه صعوبات شديدة، وتوفى فى عام (٩٦٣هـ = ١٥٥٦م)، وخلفه ابنه «أكبر شاه» الذى انتقل بالبابريين من مجرد غزاة إلى أصحاب دولة قوية راسخة البنين؛ إذ استولى على أهم مناطق «الهند»، وانتصر فى معركة «بانى بت» فى عام (٩٦٤هـ = ١٥٥٦م) - وهى المنطقة نفسها التى انتصر فيها «بابر» من قبل - ونجح «أكبر شاه» فى تنظيم حكومة أجمع المؤرخون على دقتها وقوتها، وذلك فضلا عن النهضة الثقافية التى حدثت فى

كان «ظهير الدين» قد بعث بابنه «هَمَايون» على رأس الجيش

عصره، التى بلغت مكانة سامية لم تصل إليها بلاد «أوربا». ثم توفى «أكبر شاه» فى سنة (١٠١٤هـ = ١٦٠٥م)، وخلفه ابنه «سليم» الذى تلقب باسم «نور الدين بادشاه» «جهانكير»، وكان عمره -آنذاك- ستا وثلاثين سنة، فنهج سياسة أبيه فى التسامح، وأشاع العدل بين رعاياه، ثم خلفه ابنه «شاه جهان» فى عام (١٠٣٧هـ = ١٦٢٨م). وإذا كانت «نورجهان» زوجة «جهانكير» قد اشتهرت بمكائدها، فقد اشتهرت «ممتاز محل» زوجة «شاهجهان»

بالطيبة والصفات الحميدة، والبر بالفقراء، ودفعت زوجها إلى العفو عن المذنبين، واستخدام «التأريخ الهجرى» بدلا من «التأريخ الألفى» الذى وضع فى عهد «جلال الدين أكبر».

أحب «شاه جهان» زوجته حبا شديداً، وبلغ وفاؤه لها مبلغاً عظيماً، وبنى لها مقبرة «تاج محل»، التى تعد من روائع الفن المعمارى، وإحدى عجائب الدنيا، ومازالت قائمة حتى الآن.

وفى عهد «شاه جهان» حدثت



مجاعة شديدة بالهند، فاستغلها البرتغاليون فى خطف الأهالى وأسرههم، ثم يبيعهم فى سوق الرقيق، وقد استطاع «قاسم خان» تخلص عشرة آلاف فرد منهم من أيديهم، وعهد «شاه جهان» بالحكم إلى ابنه «أورنك زيب»، بعد أن عهد إليه بالقضاء على ثورات «الدكن».

تولى «أورنك زيب» العرش فى سنة (١٠٦٩هـ)، فألغى الاحتفال بأعياد «النيروز»، وتمسك بتعاليم السنة، وأمر بتعمير المساجد، وعين لها العلماء والوعاظ، وعمل على نهضة هذه البلاد. ثم أدت الاضطرابات التى قامت وعمت مناطق واسعة من الإمبراطورية المغولية إلى سقوط هذه الإمبراطورية فى قبضة الإنجليز فى عام (١٢٧٥هـ = ١٨٥٨م).

* العلاقات الخارجية:

أقام المغول علاقات وطيدة مع بعض بلدان العالم الخارجى، لدرجة أن الشاه الصفوى أمد «ظهير الدين بابر» بجنود من الفرس؛ لكى يستعيد المناطق التى سلبت من دولته ببلاد «ما وراء النهر»، وأرغم هؤلاء الجنود الناس على اعتناق المذهب الشيعى بالقوة، وقاموا بإقامة مذابح لسكان هذه المناطق، فاتحد هؤلاء السكان وطردهم جنود الفرس، بل اتحدوا

مع «الأريك» وطردوا «بابر» نفسه، حيث فشل في منع الفرس من قتل الناس وتعذيبهم، فتوجه «بابر» ناحية «الهندستان» واستولى عليها بعد أن انتصر على «الراجبوتيين» في «خانوه».

كما أقام المغول علاقات مع البرتغاليين، الذين أمدوهم بالمدافع للوقوف أمام حاكم «الكجرات» في عهد «همايون». واستعان «همايون» بالشاه «طهما سب بن إسماعيل الصفوي» في استعادة حكمه على «هندستان»، بعد قضائه على أسيرة «شيرشاه»، خاصة أن شاه «إيران» هو الذي آواه في محنته.

وقد وفد على «الهند» في عهد «جهانكير» مبعوثان إنجليزيان هما : «وليم هوكنز» و«توماس راو»، ليعملا سفيرين لبلادهما من قبل الملك «جيمس الأول»، وكان الهدف من هذه السفارة منافسة البرتغاليين في هذه البقاع؛ حيث كانت لهم عدة مراكز على شواطئ «الهند»، وقد استعان «جهانكير» بالإنجليز على طرد البرتغاليين من بلاطه، ومحاربتهم ببحار «الهند»، ومنح الإنجليز امتيازات تجارية كثيرة.

يرجع زوال إمبراطورية المغول بالهند - في المقام الأول - إلى انصراف رجال الدولة إلى شئونهم ومصالحهم الخاصة، وتركهم مصالح

البلاد والعباد، وإيثار أنفسهم بالكنوز التي استولوا عليها في فتوحاتهم. ومن الحقائق المهمة أن عظماء الإمبراطورية المغولية حكموا قرنين من الزمان، وكان هدفهم الأول هو العمل من أجل مصلحة الدولة واستقرار أوضاعها وأمنها، ثم تبدلت الأوضاع خلال القرن الثالث والأخير لهذه الإمبراطورية، حيث غزا «نادر شاه» بلاد «الهند»، وخرب عمرانها، وقضى على مظاهر الحضارة فيها، ثم تركها لأعداء الإمبراطورية المغولية من «السيخ»، و«الهندوس» و«الإنجليز».

كان «بهادر شاه الثاني» آخر حكام المغول في «الهند»، وعزل في (١٣ من شعبان سنة ١٢٧٤هـ = ١٨٥٨م)، ثم استولت «إنجلترا» على الإمبراطورية المغولية، واستعمرت بلاد «الهند»، فعانت هذه البلاد من تعسف «الإنجليز» وظلمهم وطمعانهم، واستنزفت الشركة البريطانية ثروات هذه البلاد واستعبدت أهلها، وأسفر ذلك في النهاية عن ثورة وطنية ضد هذا الظلم وذلك الإجحاف.

* مظاهر الحضارة في الإمبراطورية المغولية بالهند :

اتسم حكام الإمبراطورية المغولية بالهند بالتسامح والعدل بين الرعية، وأدى ذلك إلى اقتراب الناس منهم، ومصاهرتهم، وإلى انتشار الإسلام في ربوع دولتهم، وقد تجلى هذا

التسامح في أبهى صورته في عهد السلطان «جلال الدين أكبر»، الذي نادى بأن تكون «الهند» لأهلها من المسلمين والهندوس.

ظلت السلطة الفعلية في أيدي السلاطين، إذ كانوا يسيطرون على نظم الحكم كلها، فقويت البلاد في عهد الحكام الأقوياء، وسقطت بالسلطين الضعفاء، ولم تكن للوزير أو الوالي سلطات قوية.

انقسمت إدارة الأراضي الزراعية للدولة إلى نوعين، أولهما : إقطاع القادة والأمراء مساحات من الأرض، ليقوموا على زراعتها ورعايتها، ثم ينفقوا من غلتها على جنودهم وخدمهم وتابعيهم، والنوع الثاني : شبيه بما يحدث اليوم؛ إذ كان الرجل يأخذ قطعة أرض مقابل الالتزام بدفع بدل يؤديه إلى خزانة الدولة.

ولعل العمارة كانت من أبرز مظاهر الحضارة في الإمبراطورية المغولية في «الهند»، إذ اهتم بها البابريون اهتمامًا بالغًا، وعمدوا إلى تعمير المدن، وأصبح لهم طرازهم المعماري المميز، الذي كان مزيجًا من فنون المسلمين والهندوس، وكانت أهم سماته القباب البصلية الشكل؛ المرصعة بالأحجار الكريمة، و«الميناء» و«الخزف»؛ فضلا عن الأقواس الحادة، والأبواب الفخمة التي في أعلاها نصف قبة، يُضاف إلى

ذلك «تاج محل» إحدى عجائب الدنيا، ذلك البناء الذي شيده «شاهجهان» ليكون مثوى لزوجته «ممتاز محل» تخليدًا ووفاءً لذكراها.

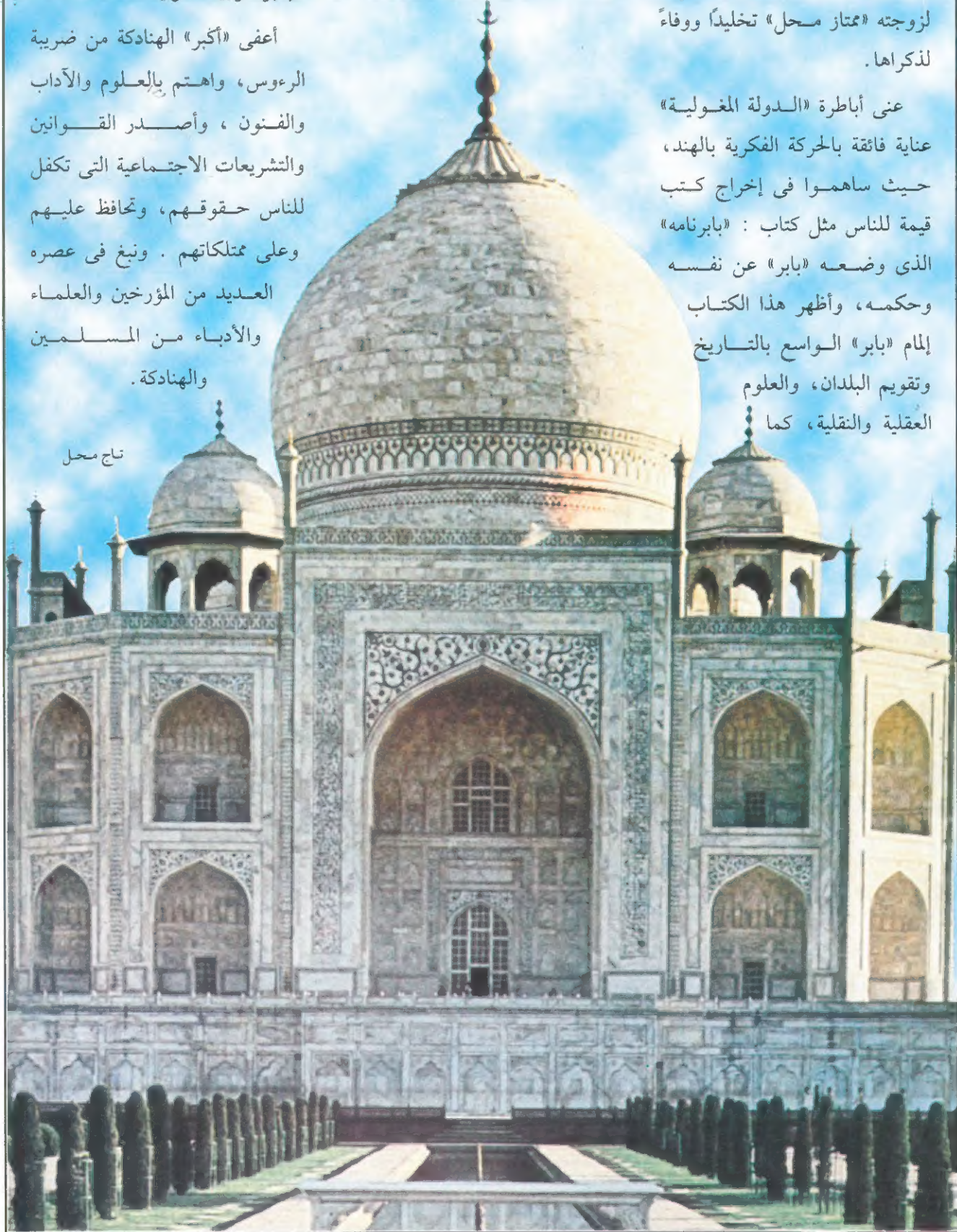
عنى أباطرة «الدولة المغولية» عناية فائقة بالحركة الفكرية بالهند، حيث ساهموا في إخراج كتب قيمة للناس مثل كتاب : «بابرنامه» الذي وضعه «بابر» عن نفسه وحكمه، وأظهر هذا الكتاب إلمام «بابر» الواسع بالتاريخ وتقويم البلدان، والعلوم العقلية والنقلية، كما

أظهر إلمامه بالأدب العربية والتركية والفارسية. وكذلك كتبت «كلبدن بيكيم» ابنة «بابر» كتاب «همايون

نامه» الذي يعد مرجعًا وثيقًا في تاريخ «همايون» ثاني سلاطين الإمبراطورية المغولية.

أعفى «أكبر» الهنادكة من ضريبة الرءوس، واهتم بالعلوم والآداب والفنون، وأصدر القوانين والتشريعات الاجتماعية التي تكفل للناس حقوقهم، وتحافظ عليهم وعلى ممتلكاتهم. ونبغ في عصره العديد من المؤرخين والعلماء والأدباء من المسلمين والهنادكة.

تاج محل



(١) كانت هذه العاصمة تقع على المحيط الهندي جنوب شنغهاي الحالية.

(٢) كان «كوجلك مسيحيا نسطوريا».

(٣) آخر خلفاء بني العباس .

(٤) الخاقان : أى الحاكم الكبير .

(٥) يعنى رئيس خدمه

(٦) إحدى المدن الإيلخانية القريبة من أصفهان .

(٧) يعادل هذا المنصب رئيس الوزراء فى الوقت الحالى .

(٨) وتكتب «قرة قيون لو» ، و«قراقويونلو» .

(٩) أصحاب الشياه أو الخراف البيضاء .

(١٠) أى مسجد الملك .

(١١) تيمور : كلمة تركية تعنى الحديد .

(١٢) «جوهرشاد» : هى زوجة «شاه رخ» والدة ابنه «ألوغ بيك» و«بايسنفر» ، وقد اشتركت مع المهندس المعمارى «قوام الدين

الشيرازى» فى تصميم وتشيد هذا المسجد .



- آدم منز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - القاهرة - ١٩٤٠ م .

- ابن الأثير (عز الدين) : الكامل فى التاريخ - تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضى - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

- أحمد أمين : ضحى الإسلام - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة العاشرة - بدون تاريخ .

- أحمد أمين : ظهر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦١ م .

- أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم - مكتبة الآداب ومطبعها - القاهرة - ١٩٥٧ م .

- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة - بيروت - دار الكتب العلمية - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

- البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد) : الآثار الباقية عن القرون الخالية - لينبرج - ١٩٣٢ م .

- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - دار الكتب المصرية - القاهرة .

- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٧٣ م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون - مؤسسة جمال للطباعة - بيروت - ١٩٧٩ .

- ابن خلكان (أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .

- زامبادور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى - ترجمة زكى حسن وحسن أحمد محمود - مطبعة جامعة فؤاد - القاهرة - ١٩٥١ ، ١٩٥٢ م .

- السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله - القاهرة - ١٣٥١ هـ .

- عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند - دار العهد الجديد للطباعة - القاهرة - ١٩٥٩ م .

- العتبى (أبو نصر محمد) : تاريخ اليمىنى - القاهرة - ١٤٨٦ هـ .

- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح بن عبد الحى) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - القاهرة - ١٣٥٠ هـ .

- فؤاد الصياد : الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين - الدوحة - ١٩٨٧ م .

- الفلقشندى (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م .

- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - بيروت - ١٩٤٨ م .

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .

مراجع فارسية

- أحمد بادكر : تاريخ سلاطين أفغانى - مجموعة البوت (٥) .

- عباس خان سروانى : تاريخ شيرشاه - مجموعة البوت (٤) .

- عبد الحميد لاهورى : بادشاهنامه - مجموعة البوت (٧) .

- عبد القادر بن ملوك شاه بدوانى : منتخب التواريخ - كلكتا - ١٨٦٨ م .

- علاء الدين عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاي - ليدن - ١٩٣٧ م .

- غلام حسين سليم : رياض السلاطين أو تاريخ بنغالة - كلكتا - ١٨٩٠ ، ١٨٩٨ م .

- غياث الدين بن همام الدين الحسينى : حبيب السير فى أخبار أفراد البشر - طهران - ١٣٧٣ هـ .

- محمد قاسم هندو شاه - تاريخ فرشته - لكتو - ١٣٢٣ هـ .

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
وسط آسيا من بدايات القرن السابع		الدولة الجلائرية في العراق وأذربيجان .	٥٧
الهجري حتى سقوط الخلافة .	٥	المظفريون في فارس وكرمان وكرديستان .	٦١
العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي .	٥	الدولة المظفرية .	٦١
المشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي .	٦	ملوك كرت في هراة وبلخ وغزنة وسرخس	
الخوارزميون .	٦	ونيسابور .	٦٤
الأوضاع السياسية في وسط آسيا قبل		أمراء قراقيونلو في أذربيجان .	٦٧
ظهور چنكيزخان .	١٢	الدولة الصفوية .	٦٩
نشأة الإمبراطورية المغولية .	١٦	شاهات إيران من الأفاغنة والأفشارية	
الخوارزميون والمغول .	٢١	والزندي والقاجارية .	٧٧
السلطان جلال الدين المنكبرتي وجهاده ضد المغول .	٣٠	التيموريون - بلاد ما وراء النهر	
غزو هولاكو لغرب إيران وقضاؤه على		الحاضرة سمرقند .	٨١
الخلافة العباسية .	٣٢	الدولة الغزنوية في أفغانستان والبنجاب .	٨٦
الدولة الجغتائية .	٣٨	الدولة الغورية في أفغانستان وهندوستان .	٩١
المشرق الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية .	٤١	سلطنة دهلي الإسلامية في عهد الملوك الماليك .	٩٢
الدولة الإيلخانية في إيران والعراق .	٤١	الخلجيون (الأفغانيون) .	٩٥
انهيار الدولة الإيلخانية .	٥٢	التغلقيون (بنو تغلق شاه) .	٩٧
مظاهر الحضارة .	٥٣	إمبراطورية المغول في الهند .	١٠٦

تتناول هذه الموسوعة تاريخ الإسلام والمسلمين بدءاً من بعثة النبي ﷺ حتى إلغاء الخلافة الإسلامية عبر رقعة كبيرة من الأرض امتدت حدودها من الصين وإندونيسيا شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلنطي غرباً ، ومن أواسط آسيا شمالاً إلى المحيط الهندي وأقصى إفريقيا جنوباً .

وقد انتهجت الموسوعة منهج الحياد في عرض الوقائع والأحداث ، دون مبالغة في ذكر الأمجاد والبطولات ، أو تهوين من العيوب والأخطاء .

وإذا كان استخلاص الدروس والعظات والاعتبار بتجارب السابقين أحد أهداف دراسة التاريخ ، فإن ذلك لا يتحقق إلا بالدراسة الموضوعية للمواقف والأحداث .

والأهم الحية هي التي تدرس تاريخها ، وتتعلم من أخطائها قبل أن تباهى بأمجادها أو تفخر بأبطالها .

سفير ٥ شارع جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص . ب : ٤٢٥ الدقي
ت ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس ٣٤٨٠٢٩٩



أجزاء الموسوعة:

- ٥ - مصر والشام والجزيرة العربية.
- ٦ - المغرب الإسلامي.
- ٧ - المسلمون في الأندلس.
- ٨ - الدولة العثمانية.
- ٩ - المسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء.

- ١ - عصر النبوة والخلافة الراشدة.
- ٢ - العصر الأموي.
- ٣ - العصر العباسي في العراق والمشرق.
- ٤ - المشرق الإسلامي بعد العباسيين.